حملات الغزو المغولي للشّرق

كما عاشها العلّامة ابن أبي الحديد المدائني

[٥٨٩-٦٥٦ هـ/١١٩٠-١٢٥٨م]

فصل من «شرح نهج البلاغة»

ترجمه إلى الفرنسيّة وعلّق عليه

الدّكتور مختار جبلي

دار للارماتون

باريس ١٩٩٥

فهرس الموضوعات

* *
*

باسم الله الرّحمن الرّحيم

مقدّمة

المؤلّف

ولد ابن أبي الحديد، عزّ الدّين عبد الحميد المدائني (١)، بمدينة المدائن، مطلع ذي الحجّة من سنة ٥٨٦ هـ/ ٣٠ كانون الأوّل ١١٩٠م. وتوفّي بمدينة السّلام -بغداد- بُعيد سقوطها على أيدي جيوش هولاغو المغولي، في أواخر جمادى الثّانية من عام ٦٥٦هـ/ حزيران ١٢٥٨ م.

كان علاّمةً، واسع المعرفة، وشاعراً مرهفاً، وكاتباً ذا قلم سيّال. وقد ألّف العديد من الكتب، شعراً ونثراً. ومن أهمّ مؤلّفاته، كتابه الجليل شرح نهج البلاغة، الذي شرح فيه خطب الإمام علي بن أبي طالب (ر) (ت ٤٠ هـ/٦٦١م) (٢).

وما كتابه شرح نهج البلاغة هذا إلاّ دليلاً ساطعًا على مدى سعة ثقافة الرّجل. فهو، بأجزائه

(١) فيما يتعلّق بابن أبي الحديد، راجع بخاصّة: أبا الفضل إبراهيم، مقدّمة شرح نهج البلاغة، ج١، ١٣-١٩؛ و:
L. Veccia Vaglieri, *I.A.Ḥ.*, dans *E.I.*, III, 706 *sq*; Djebli M., *I.A.Ḥ. & les sources de son Sharḥ nahj al-balâgha, 10-64; idem,* Introd. à l'éd. du *Sharḥ al-âyât al-bayyinât, 12-24; idem, Tendance politico-religieuse d'I.A.Ḥ.,* dans *Arabica* (en cours).

(٢) حول صحّة نهج البلاغة، انظر خاصّة:
Djebli M., *Encore à propos de l'authenticité du Nahj al-balâgha*, dans *Studia Islamica*, 1992, N°75, 33-56 & *idem, Nahj al-balâgha*!, dans *E.I.*, V, 904 *sq.*

العشرين، يمثّل -بحقّ- موسوعة ضخمة، جمع فيه صاحبه شتات معارف عصره فأوعى. فضمّنه مختلف الموضوعات، من علوم لغويّة، وأدب، وتاريخ، وفلسفة، وكلام، وفقه، وحديث، وما إلى ذلك...

وحسبنا شاهداً على هذا، الفصل المتعلّق بالتّتار الذي نضعه بين يدي القارئ، وهو من أهمّ و أمتع المواضيع التي عالجها المؤلّف؛ إذ هو يجعلنا نعيش عمليّات الغزو المغولي، واصفاً لنا بشكل حيّ، ودقيق، ومؤثّر للغاية، جماعات التّتار منذ طلوعها على العالم من أقاصي مشارف الصّين، عام ٦١٦هـ/١٢١٩م، مع كلّ ما بثّته من رعب وتدمير وتخريب، دون أن تتمكّن أيّة قوّة من ردعها وإيقاف زحفها، وهي تجتاح أراضي الإسلام، حتّى بلغت أسوار العاصمة العبّاسيّة، سنة ٦٤٣هـ/١٢٤٥م.

بعد أن يذكر الكاتب مقطعاً من الخطبة رقم ١٢٤ من نهج البلاغة (١)، يتطرّق -كعادته- لشرح ما غمُض من ألفاظ، وما غاص من معانٍ، ثمّ ينبري لتحليل النّصّ تحليلاً عميقاً.

---

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج٨، ٢١٥-٤٣ (القاهرة، ١٩٦٥-٦٧)؛ وقارن. نهج البلاغة، ج٢، ١٤-١٥.

في هذه الخطبة الّتي عنونها الشّريف الرّضي، جامع نهج البلاغة (ت. ٩٧٠هـ/١٠١٥م)، بـ"في وصف الأتراك"، يقول عليّ (ر):

"كأنّي أراهم قوماً كأنّ وجوههم المِجانُّ المُطرَقة، يلبسون السَّرَق والدّيباج، ويعتقبون الخيل العتاق. ويكون هناك استحرار قتل حتّى يمشي المجروح على المقتول؛ ويكون المُفلِت أقلّ من المأسور".

فقال له بعض أصحابه: "لقد أُعطِيتَ -يا أمير المؤمنين- علم الغيب!". فضحك عليه السّلام، وقال للرّجل، وكان كلبيًّا:

"يا أخا كلب! ليس هو بعلم غيب؛ وإنّما تعلّم من ذي علم. وإنّما علم الغيب علم السّاعة، وما عدّده الله -سبحانه- بقوله: " إنّ الله عنده علم السّاعة، وينزّل الغيث ويعلم ما في الأرحام، وما تدري نفس ماذا تكسب غداً، وما تدري نفس بأيّ أرض تموت..." (١) الآية؛ فيعلم الله -سبحانه- ما في الأرحام من ذكر أو أنثى، وقبيح أو جميل، وسخيّ أو بخيل، وشقيّ أو سعيد؛ ومن يكون للنّار حطباً أو في الجنان للنّبيّين

---

(١) سورة لقمان، الآية ٣٤.

مرافقاً. فهذا علم الغيب الّذي لا يعلمه إلاّ الله؛ وما سوى ذلك، فعلم علّمه الله نبيَّه -صلّى الله عليه وسلّم- فعلّمنيه، ودعا لي بأن يعيَه صدري، وتضطمّ عليه جوانحي».

وتعليقاً على هذا الكلام، يكتب ابن أبي الحديد:

« يقول -عليه السّلام-: إنّ الأمور المستقبلة على قسمين:

١- أحدهما: ما تفرّدالله -تعالى- بعلمه، ولم يُطلع عليه أحداً من خلقه. وهي الأمور الخمسة المعدودة في الآية المذكورة (إنّ الله عنده علم السّاعة، وينزّل الغيث ويعلم ما في الأرحام، وما تدري نفس ماذا تكسب غداً، وما تدري نفس بأيّ أرض تموت).

٢- والقسم الثّاني: ما يعلمه بعض البشر بإعلام الله -تعالى- إيّاه؛ وهو ما عدا هذه الخمسة. والإعلام بملحمة الأتراك من جملة ذلك».

ثمّ يتابع كلامه، متسائلاً: «فإن قُلتَ: فإنّ من جملة الخمسة (وما تدري نفس ماذا تكسب غداً...)، وقد أعلم الله -تعالى- نبيَّه بأمور يكسبها في غده، نحو قوله: «ستَفتَحُ مكّة»، وأعلم نبيُّه وصيَّه -عليه السّلام- بما يكسبه في غده، نحو قوله له: «ستُقاتِل بعدي النّاكثين...»؛ الخبر.

قُلتُ: «المراد بالآية أنّه لا تدري نفس جميع ما تكسبه في مستقبل زمانها، وذلك لا ينفي جواز أن يعلم بعض ما يكسبه في مستقبل زمانه».

وابن أبي الحديد، استجابةً لعقيدته الرّاسخة، والتزاماً بمذهب معتزلة بغداد المؤيّدين لعليّ (ر)، يقرّ -على غرار الشّيعة- بإمامة الخليفة، و«بوصاية النّبيّ (ص) له من بعده» (١)، ويعتقد -تبعاً لذلك- بأنّه يتحلّى بما يشبه القبس النّبويّ: ذكاءً حادّاً، وبصيرةً نقّاذةً، يمكّنان صاحبهما من استشفاف بعض ما يكنّه المستقبل في طيّاته من أحداث.

فبالنّسبة له، لم تكن تلك الجماعات الّتي وصفها عليّ خير وصف، والّتي انطلقت من أقاصي آسيا لتزرع الهلع والرّعب حيثما مرّت، لم تكن إلاّ ما عرفه التّاريخ فيما بعد باسم التّتار أو المغول.

مصادر ابن أبي الحديد

تبدو المعلومات الّتي يقدّمها لنا المؤلّف، في هذا

---

(١) راجع في هذا الموضوع، خصوصاً:
Djebli M., *Tendance politico-religieuse d'I.A.Ḥ.*, dans *Arabica,* (en cours).

الفصل، معلوماتٍ أوّليّةً، ذاتيّةً في معظمها، حيث تمثّل سرداً لأحداث عاشها بنفسه عن كثب، وفي إبّانها؛ وهنا تكمن قيمتها العلميّة. ومع هذا، هناك سؤال هامّ يطرح نفسه: أجل! عدا بعض الأخبار الّتي استقاها المؤلّف من خلال اتّصالاته الشّخصيّة مع بعض التّجّار أو عابري السّبيل، الوافدين على بغداد، كالبرهان الخراساني (١) الّذي أشار له بنفسه. عدا ذلك، ما هي المصادر الّتي نهل منها، وهو يروي لنا ملحمة التّتار هذه؟

هناك -على ما يبدو- أربعة مؤرّخين معاصرين للمؤلّف تطرّقوا لهذا الموضوع:

١- عزّ الدّين ابن الأثير، في كتابه الكامل في التّاريخ، وقد أنجزه عام ٦٢٩هـ/١٢٣١م، وضمّنه فصلاً طويلاً للتّتار، حيث روى بعض الأخبار الشّبيهة أحياناً بتلك الّتي زوّدنا بها ابن أبي الحديد؛ لكن دون أن يلحّ على أصل القوم ومنشئهم (٢).

٢- محمّد النّسوي، في سيرة جلال الدّين خوارزمشاه، الّذي صنّفه سنة ٦٣٩هـ/١٢٤١م.

---

(١) انظر فيما يأتي: ص ٣٩.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ج١٢، ص ٣٥٨-٩٩، ٤٠١-٤، ٤١٩-٢٠، ٤٧٠-٨٩، ٥٩٥-٦٠٢.

٣- علاء الدين الجويني، في تاريخ جهانكشاي، وقد ألّفه ما بين سنتي ٦٥٠-٦٥٨هـ/١٢٥٢-١٢٦٠م.

٤- وأخيراً، عثمان الجوزجاني، في طبقات ناصري، الّذي كتبه حوالي سنة ٦٥٧-٥٨هـ/١٢٥٨-٥٩م.

يمكن لتوّنا أن نطرح جانباً هذين الأخيرين، إذ أنّ كتابيهما متأخّران عن شرح نهج البلاغة، الّذي بدأ صاحبه في تصنيفه سنة ٦٤٤هـ/١٢٤٦م، وأنجزه عام ٦٤٩هـ/١٢٥١م (١).

وحسب اعتقادنا، يمكن غضّ الطّرف عن سيرة جلال الدّين كذلك. فعلى ما يبدو، لم يلجأ لها صاحبنا وهو يخطّ هذا الفصل؛ لسبب بسيط، ألا وهو تباين الأحداث الّتي يرويها كلاهما؛ تماماً كتَبايُن هدفيهما؛ ففي حين كان همّ أحدهما الوحيد ذكر الغزو المغولي لأرض الإسلام، كان هدف الثّاني الرّئيسي سرد سيرة جلال الدّين خوارزمشاه فحسب؛ ولم يكن الحديث عن التّتار بالنّسبة له إلاّ عرضاً.

إذن لم يبق أمامنا غير خيار واحد: الكامل لابن الأثير الجزري. ما من شكّ أنّ ابن أبي الحديد نهل

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج٢٠، ٣٤٩.

من معين هذا الكتاب الغزير؛ على الأقلّ فيما يتعلّق بأحداث الفترة ما بين سنة ٦١٧-٦٢٨هـ/١٢٢٠-١٢٣٠م، نظراً لِما بين النّصّين من تشابه في سرد بعض الأحداث، شكلاً ومضموناً أحياناً، رغم أنّ ما ورد في شرح نهج البلاغة هو أكثر دقّة، وأمتن بنية، وأسلس عبارة، وأرقّ أسلوباً.

علاوةً على أنّ ابن أبي الحديد يعطي تفاصيل لم نجد لها أثراً في أيّ مصدر عربيّ آخر؛ مثل تلك القبائل المغوليّة الّتي أتى على ذكرها، من يتبه، وتفريه، ويمك (١)؛ أو مدينة قراقرم، عاصمة جنكزخان (٢)، أو ذلك النّزاع الّذي شبّ بين أهالي أصبهان، من حنفيّة وشافعيّة (٣)، والّذي كانت عاقبته الوخيمة، وقوع المدينة لقمة سائغة للمغول، بعد مقاومة بطوليّة كادت تحبط عزيمة الغزاة، إلخ...

وأيضاً فيما يتعلّق بمصير محمّد خوارزمشاه المجهول، فشارح النّهج يقدّم ثلاثة افتراضات، تختلف

(١) انظر فيما يأتي: ص ٢١.
(٢) نفس المصدر: ص ٥٧، هامش ١.
(٣) نفس المصدر: ص ٥٦-٥٧.

كلّها عمّا يذهب له ابن الأثير(١).

هناك سؤال آخر قد يدور بالخُلد: لِم أغفل ابن أبي الحديد ذكر الكامل هنا تماماً، إن استفاد منه، بينما ذكره مراراً وتكراراً في غير موضع من كتابه (٢)؟! تُرى، أكان ذلك الصّمت عفويًّا أو سهواً منه؛ وهذا مستبعد جداً لِما عوّدنا به من تمحيص وتدقيق؟! أم كان تلقائيًّا وعن قصد، بغية الحفاظ على قصب السّبق في هذا المضمار؛ وذلك مثير للإستغراب من قبل رجل مثله، عُرف بأمانته العلميّة، ونزاهته، واستقامته؟!

ما الأمر إذن؟ وما تعليل هذا الصّمت العجيب؟!

ليس من المستبعد، في رأينا، أنّ كلا الكاتبين -وهما متزامنان ومعاصران للأحداث- قد استقى معلوماته من مصادر متشابهة، ليست مدوّنة، وإنّما هي روايات تواتريّة سماعيّة، عن طريق شهود عيان: تجّار ومسافرين خاصّةً، وافدين على كلّ من

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة ج ٨، ص ٢٢٧-٢٩؛ قارن: الكامل، ج ١٢، ٣٧٠.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة ج ٢، ٢١ وما بعدها؛ ج ٦، ٢٧٣-٧٥؛ ج ٧، ٧٥، وغيرها...

بغداد -مقرّ ابن أبي الحديد-، والموصل -موطن ابن الأثير-. ولعلّ هذا ما يفسّر التّقارب والتّباعد بين ما يقدّمه كلاهما من أخبار في سرده لتلك الأحداث.

باريس، ١٩٩٤/٤/١

د. مختار جبلي

*   *
*

فصل

في ذكر التتار ورئيسهم جنكز خان

[ظهور التتار ومنشؤهم] (١)

أعلم أنّ هذا الغيب، الّذي أخبر عليه السّلام عنه، قد رأيناه عياناً، ووقع في زماننا. وكان النّاس ينتظرونه من أوّل الإسلام؛ حتّى ساقه القضاء والقدر إلى عصرنا. وهم التّتار الّذين خرجوا من أقاصي المشرق، حتّى وردت خيلهم العراقَ والشّام. وفعلوا بملوك الخطا(١)، وقفجاق (٢)، وبلاد ماوراء النّهر، وخراسان، وما والاها من بلاد العجم، ما لم تحتو التّواريخ، منذ خلق الله آدم إلى عصرنا هذا، على مثله.

---

(١) كلّ العناوين من وضعنا؛ لذلك حصرناها بين معكوفين.

(٢) الخطا: قبائل تركيّة مغوليّة؛ استوطنت، منذ القرن الخامس شمال الصّين. وقد لجأ قسم منها إلى منطقة بحيرة بلخ، بالتركستان الشرقية، لتنشئ مملكة قرا-خطا (أي الخطا السّود). (انظر: رشيد الدّين، جامع التّواريخ: ١١٠ و ما بعدها؛ برتولد، التركستان، ٤٧٢-٧٥؛ وأيضا: Barthold, *Tatar, E.I.*: IV, 736*sq*; Grousset, *L'Empire des Steppes*: 180-94, 219-94; *idem, L'Empire mongol*: 15-20; Bosworth, *Kara-Khitây, E.I.:* IV, 604 *sq*; Perroy, *Le Moyen Age:* 315 & *passim*; Armengaud, *Mongolie, E.U.*: XI, 229-61; *Le Grand Robert des noms propres*: III, 1692; Kasimirski, *Dictionnaire*: I, 752).

(٢) أو بالرّوسيّة "بولفتزي": وهم جماعة من القبائل التّركيّة المغولية، كانت تسكن الهضاب الرّوسيّة حتّى ظهور جنكزخان، حيث جعل منها حفيده باتو خانة القفجاق، أو ماكان يعرف بالعشيرة الذّهبيّة: (La Horde d'Or). (راجع في ذلك: برتولد، التّركستان: ص ٥٢٩؛ وكذلك: Barthold, *Histoire des Turcs*: 88-92; Grousset, *L'Empire des Steppes*:238-42 & *passim*; Miquel, *Géographie Humaine*: II, 213 *sq*; Pelliot/Hambis: *Histoire des campagnes de Gengis Khan*: 104-112 & *passim*; Hazaï, *Kipchâq*, *E.I.*: V,128*sq*; Armengaud, *L'Epoque gengiskhanide, E.U.*: XI, 246 *sq*; Zambaur, *Manuel de généalogie*: 230 *sq*; Perroy, *Le Moyen Age*: 321 & *passim*).

فإنّ بابك الخُرّمي (١) لم تكن نكايته -وإن طالت مدّته نحو عشرين سنةً- إلاّ في إقليم واحد، وهو أذربيجان. وهؤلاء دوّخوا المشرق كلّه. وتعدّت نكايتهم إلى بلاد أرمينيّة، وإلى الشّام. ووردت خيلهم إلى العراق. وبُختَ نصّر (٢) الّذي قتل اليهود، إنّما أخرب بيت المقدس، وقتل من كان بالشّام من بني إسرائيل. وأيّ نسبة بين مَن كان بالبيت المقدس من بني إسرائيل إلى البلاد والأمصار الّتي أخربها هؤلاء، وإلى النّاس الّذين قتلوهم من المسلمين، وغيرهم!؟

ونحن نذكر طرفاً من أخبارهم، وابتداء ظهورهم على سبيل الإختصار، فنقول:

إنّا على كثرة اشتغالنا بالتواريخ، وبالكتب المتضمّنة أصناف الأمم، لم نجد ذكر هذه الأمّة [التتّار] أصلاً. ولكنّا وجدنا ذكر أصناف الترك

---

(١) بابك الحسن بن مُطهّر الخُرّمي، من أصل فارسي، وإليه تنسب الفرقة الخُرّميّة الثّنائيّة المعتقد. قد شقّ عصا الطّاعة في وجه الخلافة العبّاسيّة؛ ودامت ثورته، الّتي انطلقت من منطقة البذّ، بأذربيجان، ما ينيف على العشرين سنةً (٢٠١-٢٢٣هـ/٨١٦-٨٣٨م). وإلى هذا، أشار الكاتب. (انظر: المسعودي، مروج الذّهب، ج ٤، ٢٥٢-٥٩؛ وأيضاً:
Madelung W., *al-Khurramiyya, E.I.*, V, 65-67).

(٢) بُختَ نصّر الثّاني ملك بابل الجبّار (٦٠٥-٥٦٢ ق. م.). وقد كان رجل حرب وقتال. فبمجرّد اعتلائه العرش، غزا مصر سنة ٦٠٥ق. م. ثمّ احتلّ القدس سنة ٥٩٧ ق. م. واستعمل فيها عنفاً لم يسبق له نظير. فهدّم معابدها، وقتّل سكّانها أشنع تقتيل، وسبى النّساء والأطفال. ثمّ نقل كلّ من بقي على قيد الحياة إلى بابل. (المسعودي، مروج الذّهب، ج١، ٢٦٩؛ وأيضاً: Vajda G., *Bukht-Naṣṣar, E.I.*, VI, 941-44).

من القفجاق (١)، واليمك (٢)، والبرلو(٣)، والتفريه (٤)، واليتبة (٥)، والخطا(٦)، والرّوس، والقرغز(٧)، والتّركمان. ولم يمرّ بنا في كتاب ذكر هذه الأمّة سوى

---

(١) راجع فيما سبق: ص ١٩، هامش ٢.

(٢) اليمك أو اليامك: إحدى القبائل التّركيّة المعروفة بالكونكالس؛ وقد كانت تقطن شمال خوارزم، وعلى وجه التّحديد، بمنطقة الشمال الشرقي لبحر القزوين. (راجع: النّسوي، سيرة جلال الدّين: ٧١، ٩٩، ١٢٢؛ وأيضا:
D'Ohsson, *Histoire des Mongols*: I, 196; Pelliot/Hambis, *Histoire des campagnes de Gengis Khan*: 89, 95, 96 & 107; Barthold, *Histoire des Turcs*: 89).

(٣) البرلو أو البارولا: قبيلة تركيّة، أصيلة مجموعة البرالتاي. (انظر: برتولد، التّركستان: ص ٦٦١؛ وأيضاً:
Belliot/Hambis, *Histoires des campagnes de Gengis Khan*: 25, 33, 34, 59, 60; Grousset, *L'Empire mongol*: 23).

(٤) التفريه: لسوء الحظّ، لم نتمكّن من الكشف عن أصل هذه القبيلة. لكن لا يستبعد أن يكون قد اعترى هذه التّسمية تحريف. ولعلّ المؤلّف يعني بذلك سكّان منطقة التّرفان التّرك، المعروفين باللأوغور. (قارن:
Grousset, *L'Empire des Steppes*: 219 *sq*).

(٥) اليتبة: لعلّه تحريف لما كان يعرف بالتّوبا أو التّبت؛ وإليهم تنسب منطقة التّيبت، حسب رأي بلوشي. (راجع:
Blochet, *Introduction à l'histoire des Mongols*: 201, note: 7; & Grousset, *L'Empire des Steppes*: 103).

(٦) راجع فيما سبق: ص ١٩، هامش ١.

(٧) القرغز: مجوعة من القبائل التّركيّة المغوليّة، كانت مستقرّة بالمنطقة التي تحمل إسمها: الكرغستان، الواقعة بآسيا الوسطى. (انظر:
Pelliot,/Hambis, *Histoire des campagnes de Gengis Khan*: I, 13, 14, 70, 80 & *passim*; Grousset, *L'Empire des Mongols*: 196 *sq & passim*; Perroy, *Le Moyen Age*: 202 & *passim*; Barthold/Hazaï, *Kirghiz, E.I.*: V, 137 *sq*).

كتاب واحد؛ وهو كتاب "مروج الذّهب" للمسعودي (١)؛ فإنّه ذكرهم هكذا بهذا اللّفظ «التّتر». والنّاس -اليوم- يقولون: "التّتار» بألف (٢).

وهذه الأمّة كانت في أقاصي بلاد المشرق في جبال «طمغاج» (٣) من حدود الصّين، وبينهم وبين بلاد الإسلام، التي ما وراء النّهر، ما يزيد على مسير ستّة أشهر.

[استيلاء خوارزمشاه على بلاد ماوراء النهر]

وقد كان خوارزمشاه -وهو محمّد بن تكش- أستولى على بلاد ماوراء النّهر. وقتل ملوكها من الخطا الذين كانوا ببخارى، وسمرقند، وبلاد تركستان، نحو

---

(١) انظر: المسعودي، مروج الذّهب: ج ١، ٢٣٥. مع الملاحظة بأنّ أستاذنا، المغفور له شارل پلا، في تحقيقه الجديد للكتاب، أثبت هذه الكلمة: «ببر» وبالهامش: «تبر»؛ ولعلّ من الأسلم قراءتها -على ضوء ملاحظة ابن أبي الحديد هذه-: «تتر».

(٢) هكذا يستعمل ابن الأثير هذه العبارة، بالألف الطّويلة: «التّتار»؛ في حين أنّ النّسوي يضيف لها ألفين: «التّاتار». (راجع: ابن الأثير، الكامل: ج ١٢، ٣٥٨ وغيرها؛ النّسوي، سيرة جلال الدّين: ٧١، ٩٩، وغيرها).

(٣) طمغاج: كانت -حسب برتولد- مدينة صينيّة؛ أو -كما يفترض رافرتي- منطقة من بلاد التركستان. (راجع: برتولد، التركستان: ٥٦٧؛ و Raverty, *Ṭabaqât-i Nâṣirî*: II, 952, 956 *sq*).

كاشغر(١)، وبلاسغون (٢)؛ وأفناهم. وكانوا حِجاباً بينه وبين هذه الأمّة، وشحن هذه البلاد بقوّاده وجنوده. وكان في ذلك غالطا، لأنّ ملوك الخطا كانوا وقايةً له من هؤلاء؛ فلمّا أفناهم، صار هو المتولّي لحرب هؤلاء أو سِلمهم. فأساء قوّاده وأمراؤه الذين بتركستان السّيرة معهم؛ وسدّوا طرق التّجارة عنهم.

[استيلاء التتار على تركستان]

فانتُدِبت منهم طائفة نحو عشرين ألفا مجتمعةً؛ كلّ بيت منها له رئيس مفرد؛ فهم متساندون. وخرجوا إلى بلاد تركستان. فأوقعوا بقوّاد خوارزمشاه و عمّاله هناك؛ وملكوا البلاد. وتراجع من بقي، من عسكر خوارزمشاه وسلم من سيف التّتار، إلى خوارزمشاه. فأغضى على ذلك، ورأى أنّ سعة ملكه تمنعه عن مباشرة حربهم بنفسه، وأنّ غيره من قوّاده

---

(١) كاشغر: منطقة بالتركستان الشرقي، كانت موطنا لمجموعات تركيّة مغوليّة. (انظر: Grousset, *L'Empire des Steppes*: 199-203)

(٢) بلاساغون: كانت عاصمة القرا-خطا. وتقع على نهر التشو، غرب الستّيك-كول، في بلاد القرغز. (انظر: النّسوي، سيرة جلال الدّين: ٤٢١؛ وكذلك:
Barthold, *Histoire des Turcs*: 64*sq*; Barthold/Boyle, *Balâsghûn, E.I.*: 1017 *sq*; Grousset, *L'Empire des Steppes*: 220, 293 & *passim*).

لا يقوم مقامه في ذلك، وترك بلاد تركستان لهم.

واستقرّ الأمر على أنّ تركستان لهم، وما عداها من بلاد ما وراء النّهر، كسمرقند، وبخارى، وغيرهما، لخوارزمشاه. فمكثوا كذلك نحو أربع سنين.

[جنكزخان رئيس وراثي للتتار]

ثمّ إنّ المعروف بجنكزخان، (والنّاس يلفظونه بالرّاء؛ وذكر لي جماعة من أهل المعرفة بأحوال التّتر أنّه «جنكز» بالزّاي المعجمة)، عنّ له رأي في النّهوض إلى بلاد تركستان. وذلك أنّ جنكزخان هذا هو رئيس التّتار الأقصيين في المشّرق، وابن رئيسهم. وما زال سلفه رؤساء تلك الجهة.

وكان شجاعاً؛ عاقلاً، موفّقاً، منصوراً في الحرب. وإنّما عنّ له هذا الرّأي، لأنّه رأى أنّ طائفة من التّتار -لا مَلِكَ لهم، وإنّما يقوم بكلّ فرقة منهم مدبّر لها من أنفسها- قد نهضت؛ فملكت بلاد تركستان على جلالتها. غار من ذلك، وأراد الرّئاسة العامّة لنفسه، وأحبّ الملك، وطمع في البلاد. فنهض بمن معه من أقاصي الصّين، حتّى صار إلى حدود أعمال تركستان. فحاربه التّتار الذين هناك، ومنعوه عن

تطرّق البلاد؛ فلم يكن لهم به طاقة، وهزمهم، وقتل كثيرا منهم. وملك بلاد تركستان بأجمعها، وصار كالمجاور لبلاد خوارزمشاه، وإن كان بينهما مسافة بعيدة. وصار بينه وبين خورزمشاه سلم ومهادنة؛ إلاّ أنّها هدنة على دخن!

[خوارزمشاه يتحدّى جنكزخان]

فمكث الحال على ذلك يسيرا. ثمّ فسدت بما كان يصل إلى خوارزمشاه على ألسنة التّجّار من الأخبار، وأنّ جنكزخان على عزم النّهوض إلى سمرقند وما يليها، وأنّه في التّأهّب والإستعداد. فلو داراه لكان أولى له. لكنّه شرع؛ فسدّ طرق التّجّار القاصدين إليهم. فتعذّرت عليهم الكسوات، ومنع عنهم الميرة والأقوات التي تُجلَب وتُحمَل من أعمال ما وراء النّهر إلى تركستان. فلو اقتنع بذلك لكان قريباً؛ لكنّه أنهى إليه نائبه بالمدينة المعروفة بأوترار(١) -وهي آخر ولايته بما

(١) يسمّي المؤلّف خطأ هذه المدينة بأوتران، والأصح كما أثبتناه. وكان نائب خوارزمشاه على تلك المدينة آنذاك، ابن خاله ينال خان. (راجع: ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة :ج ٢٢٠،٨-٢٢١؛ النسوي، سيرة جلال الدّين: ٥٨؛ برتولد، التركستان: ٥٦٨؛ وراجع أيضا:
Juwaynî, *Ta'rîkh-i djahân-gushây*: I, 81; Jûzjânî, *Ṭabaqât-i Nâṣirî:* II, 1104; 298).

وراء النّهر- أنّ جنكزخان قد سيّر جماعة من تجّار التّتار(١)، ومعهم شيء عظيم من الفضّة إلى سمرقند ليشتروا له ولأهله وبني عمّه كسوةً وثياباً، وغير ذلك.

فبعث إليه خوارزمشاه يأمره بقتل أولئك التّجّار، وأخذ ما معهم من الفضّة وإنفاذها إليه. فقتلهم وسيّر إليه الفضّة، وكان ذلك شيئا كثيرا جدا. ففرّقه خوارزمشاه على تجّار سمرقند وبخارى. وأخذ ثمنها منهم لنفسه. ثمّ علم أنّه قد أخطأ. فأرسل إلى نائبه بأوترار، يأمره أن يُنفِذ جواسيس من عنده إليهم، ليخبروه بعدّتهم.

فمضت الجواسيس؛ وسلكت مفاوز وجبالا كثيرة، وعادوا إليه بعد مدّة. فأخبروه بكثرة عددهم، وأنّهم لا يبلغهم الإحصاء ولا يدركهم؛ وأنّهم من أصبر النّاس على القتال؛ لا يعرفون الفرار. ويعملون ما يحتاجون إليه من سلاح بأيديهم، وأنّ خيلهم لا تحتاج إلى الشّعير، بل تأكل نبات الأرض وعروق المراعي؛ وأنّ

---

(١) يؤكّد النّسوي -من جهته- أنّ أولئك التّجار كانوا قد وفدوا في قافلة ضخمة، تعدّ خمسمائة جمل، محمّلة، ليس فقط بالفضّة، بل كذلك بالذّهب، والفرو، والحرير الصّيني، والملابس الفاخرة. وكان على رأس تلك القافلة أربعة رجال مسلمين؛ وهم: عمر الخواجة الأوتراري، والحمّال المراغي، وفخر الدّين البخاري، و أمين الدّين الحروشي. (انظر في ذلك: النسوي، سيرة جلال الدّين: ٥٨؛ و برتولد، التّركستان: ٥٦٨).

عندهم من الخيل والبقر ما لا يحصى. وأنّهم يأكلون الميتة والكلاب والخنازير. وهم أصبر خَلق اللّه على الجوع، والعطش، والشّقاء. وثيابهم من أخشن الثّياب مسًّا. ومنهم من يلبس جلود الكلاب، والدّواب الميتة. وأنّهم أشبه شيء بالوحوش، والسّباع!

فأُنهِيَ ذلك كلّه إلى خوارزمشاه. فندم على قتل أصحابهم، وعلى خرق الحجاب بينه وبينهم، وأخذ أموالهم. وغلب عليه الفكر والوجل.

فأحضر الشّهاب الخيوقي (١)، وهو فقيه، فاضل، كبير المحلّ عنده، لا يخالف ما يشير به؛ فقال له: «قد حدث أمر عظيم، لا بدّ من التّفكير فيه، وإجالة الرّأي فيما نفعل. وذلك أنّه قد تحرّك إلينا خصم من التّرك في عدد لا يحصى». فقال له: «عساكرك كثيرة؛ وتُكاتِب الأطراف، وتَجمَع الجنود، ويكون من ذلك نفير عام. فإنّه يجب على المسلمين كافّة مساعدتك بالأموال والرّجال. ثمّ تذهب بجميع العساكر إلى جانب جيحون -وهو نهر كبير يفصل بين بلاد التّرك وبين بلاد خوارزمشاه-، فتكون هناك؛ فإذا جاء العدوّ، وقد سار

---

(١) ورد في شرح ابن أبي الحديد: «الحيوقي»، وهو تحريف؛ والأسلم كما أثبتناه، نسبة إلى مدينة حيوق بخراسان. (انظر: النسوي، سيرة جلال الدّين: ١٠٩؛ وبرتولد، التّركستان: ٥٧٧).

مسافة بعيدة، لقيناه ونحن جامّون، مستريحون، وقد مسّه وعساكره النّصب واللُّغوب».

فجمع خوارزمشاه أمراءه، ومن عنده من أرباب المشورة. فاستشارهم، فقالوا: «لا، بل الرّأي أن نتركهم ليعبروا سيحون إلينا، ويسلكوا هذه الجبال والمضايق؛ فإنّهم جاهلون بطرقها، ونحن عارفون بها، فنَظهر عليهم. ونهلكهم عن آخرهم».

فكانوا على ذلك حتّى وصل رسول من جنكزخان، ومعه جماعة، يتهدّد خوارزمشاه، ويقول: "تقتل أصحابي وتجّاري، وتأخذ مالي منهم! إستعدّ للحرب، فإنّي واصل إليك بجمع لا قِبَل لك به".

فلمّا أدّى هذه الرّسالة إلى خوارزمشاه، أمر بقتل الرّسول، فقُتِل؛ وحلق لحى الجماعة الذين كانوا معه. وأعادهم إلى جنكزخان ليخبروه بما فعل بالرّسول، ويقولوا له: "إنّ خوارزمشاه يقول لك: إنّي سائر إليك، فلا حاجة لك أن تسير إليّ؛ فلو كنتَ في آخر الدّنيا لطلبتك حتّى أقتلك، وأفعل بك وبأصحابك ما فعلتُ برُسُلك".

المواجهة الأولى

وتجهّز خوارزمشاه. وسار بعد نفوذ الرّسول،

مبادراً لسبق خبره، ويكبس التّتار على غرّة. فقطع مسيرة أربعة أشهر في شهر واحد. ووصل إلى بيوتهم وخركاواته (١)؛ فلم ير فيها إلاّ النساء، والصّبيان، والذّرّية.

وكان سبب غيبوبة التّتار عن بيوتهم أنّهم ساروا إلى محاربة ملك التّرك، يقال له "كشلوخان"(٢). فقاتلوه. فهزموه، وغنموا أمواله.

وعادوا، فلقيهم الخبر في طريقهم بما فعل خوارزمشاه بمخلّفيهم. فأعدّوا السّير، فأدركوه، وهو على الخروج من بيوتهم، بعد فراغه من الغنيمة. فواقعوه، وتصافّوا للحرب ثلاثة أيّام بلياليها، لا يفترون نهاراً ولا ليلاً. فقتل من الفريقين ما لا يُعَدّ؛ ولم ينهزم منهم أحد.

أمّا المسلمون فصبروا حميّةً للدّين. وعلموا أنّهم إن انهزموا لم يبق للإسلام باقية. ثمّ إنّهم لا ينجون، بل يُؤخَذون ويُؤسَرون لبعدهم عن بلاد يمتنعون بها.

---

(١) خركاوات: م. خركاة، وهي خيمة كبيرة، مستديرة الشكل.

(٢) كشلوخان: هو ابن الملك نيمان. كان عدوّا لدوداً لجنكزخان. وقد استمرّ حكمه على القرا-خطا ما بين سنتي ١٢١١-١٢١٨م. (انظر: برتولد، التركستان: ٥١٦-٦٥؛ وأيضا:
Juwaynî, *Ta'rîkh-i*: I, 61-69; Jûzjânî, *Ṭabaqât-i Nâṣirî*: II, 967*sq*; Pelliot/Hambis, *Histoire des campagnes de Gengis Khan*: 298sq; Grousset, *L'Empire des Steppes*: 293; *idem*, *Le Conquérent*: 251-55).

وأمّا التّتار(١) فصبروا لاستنقاذ أموالهم وأهلهم.

واشتدّ الخطب بين الطّائفتين؛ حتّى أنّ أحدهم كان ينزل عن فرسه، ويقاتل قِرنه راجلاً، مضاربةً بالسّكاكين. وجرى الدّم على الأرض، حتّى كانت الخيل تزلق فيه لكثرته. ولم يحضر جنكزخان بنفسه هذه الوقعة؛ وإنّما كان فيها قاآن (٢) ولده.

فأُحصِيَ من قُتِل من المسلمين، فكانوا عشرين ألفاً. ولم يُحص عدّة من قُتِل من التّتار. فلمّا جاءت اللّيلة الرّابعة، افترقوا. فنزل بعضهم مقابل بعض. فلمّا أظلم اللّيل، أوقد التّتار نيرانهم، وتركوها بحالها، وساروا راجعين إلى جنكزخان ملكهم.

وأمّا المسلمون فرجعوا، ومعهم محمّد خوارزمشاه. فلم يزالوا سائرين حتّى وافوا بخارى.

---

(١) الجدير بالملاحظة أنّ ابن أبي الحديد يحافظ دوماً على اتّزانه وموضوعيّته، في سرد الوقائع. وهو لايذكر التّتار إلاّ باسمهم أو بضمير الغائب (هم)؛ على عكس معاصريه، كابن الأثير الذي غالباً ما يطلق عليهم لفظ «الكفّار» أو «الملاعين». (انظر: ابن الأثير، الكامل: ج ١٢، ص ٢٥٨، ٢٦١، ٣٦٨ وغيرها؛ والنسوي، سيرة جلال الدّين: ٣٩، ٤٠، ١٧٠، وغيرها).

(٢) هو أوغوداي، ثالث أبناء جنكزخان (١١٨٦-١٢٤١م). وقد لقّب بقاآن (الخان الكبير)، إثر تولّيه الحكم خلفاً لأبيه، سنة ١٢٢٩م. (راجع: رشيد الدّين، جامع التّواريخ: ٢٠٥ وما بعدها؛ وأيضا:

Pelliot/Hambis, *Histoire des campagnes de Gengis Khan*: 15 sq; Grousset, *L'Empire mongol*: 285-301).

وعلم خوارزمشاه أنّه لا طاقة له بجنكزخان، لأنّ طائفةً من عسكره لم يلقوا خوارزمشاه بجميع عساكره بهم، فكيف إذا حشدوا وجاؤوا على بكرة أبيهم، وملكهم جنكزخان بينهم؟!

فاستعدّ للحصار. وأرسل إلى سمرقند يأمر قوّاده المقيمين بها بالاستعداد للحصار. وجمع الذّخائر للإمتناع والمقام من وراء الأسوار. وجعل في بخارى عشرين ألف فارس يحمونها، وفي سمرقند خمسين ألفاً. وتقدّم إليهم بحفظ البلاد حتّى يعبر -هو- إلى خوارزم وخراسان، فيجمع العساكر، ويستنجد بالمسلمين والغزاة المطوّعة، ويعود إليهم.

ثمّ رحل إلى خراسان؛ فعبر جيحون. وكانت هذه الوقعة في سنة ستّ عشرة وستّمائة. فنزل بالقرب من بلخ؛ فعسكر هناك، واستنفر النّاس.

سقوط بخارى

وأمّا التّتار فإنّهم رحلوا، بعد أن استعدّوا، يطلبون بلاد ما وراء النّهر. فوصلوا إلى بخارى بعد خمسة أشهر من رحيل خوارزمشاه عنها، وحصروها. فقاتلوا العسكر المرابط بها ثلاثة أيّام قتالا متتابعا. فلم

يكن للعسكر الخوارزمي بهم قوّة. ففتحوا أبواب المدينة ليلاً، وخرجوا بأجمعهم، عائدين إلى خراسان. فأصبح أهل بخارى، وليس عندهم من العسكر أحد أصلاً. فضعفت نفوسهم؛ فأرسلوا قاضي بخارى (١) ليطلب الأمان للرّعيّة. فأعطاه التّتار الأمان. وقد كان بقي في قلعة بخارى خاصّة طائفة من عسكر خوارزمشاه، معتصمون بها.

فلمّا رأى أهل بخارى بذلهم للأمان، فتحوا أبواب المدينة. وذلك في رابع ذي الحجّة من سنة ستّ عشرة وستّمائة.

فدخل التّتار بخارى، ولم يتعرّضوا لأحد من الرّعيّة، بل قالوا لهم: «كلّ ما لخوارزمشاه عندكم من وديعة، أو ذخيرة أخرجوه إلينا؛ وساعدونا على قتال من بالقلعة، ولا بأس عليكم!». وأظهروا فيهم العدل، وحسن السّيرة. ودخل جنكزخان بنفسه إلى البلد؛ وأحاط بالقلعة. ونادى مناديه في البلدان: «لا يتخلّف أحد؛ ومن تخلّف قُتِل!». فحضر النّاس بأسرهم. فأمرهم بطمّ الخندق؛ فطمّوه بالأخشاب، والأحطاب، والتّراب. ثمّ زحفوا نحو القلعة. وكان عدّة من بها من

---

(١) وهو -حسب ابن الأثير (الكامل: ج ٩، ٢٣٢)- بدر الدّين قاضي خان.

الجند الخوارزميّة أربعمائة إنسان. فبذلوا جهدهم، ومنعوا القلعة عشرة أيّام، إلى أن وصل النّقّابون إلى سور القلعة. فنقبوه، ودخلوا القلعة. فقتلوا كلّ من بها من الجند، وغيرهم.

فلمّا فرغوا منها، أمر جنكزخان أن يُكتَب له وجوه البلد، ورؤساؤهم. ففُعِل ذلك. فلمّا عُرِضوا عليه أمر بإحضارهم. فأُحضِروا. فقال لهم: "أريد منكم الفضّة النّقرة التي باعها إيّاكم خوارزمشاه؛ فإنّها لي، ومن أصحابي أُخِذت".

فكان كلّ من عنده شيء منها يحضره. فلمّا فرغ من ذلك، أمرهم بالخروج عن البلد بأنفسهم خاصّة. فخرجوا مجرّدين عن أموالهم، ليس مع كلّ واحد منهم إلاّ ثيابه الّتي على جسده. فأمر بقتلهم. فقُتِلوا عن آخرهم. وأمر حينئذ بنهب البلد. فنُهِب كلّ ما فيها، وسبيت النّساء والأطفال؛ وعذّبوا النّاس بأنواع العذاب في طلب المال.

ثمّ رحلوا عنه نحو سمرقند، وقد تحقّقوا من عجز خوارزمشاه عنهم. واستصحبوا معهم من سلم من أهل بخارى، أسارى، مشاةً، على أقبح صورة. وكلّ من أعيى عن المشي قتلوه.

[سقوط سمرقند]

فلمّا قاربوا سمرقند، قدّموا الخيّالة؛ وتركوا الرّجّالة، والأسارى، والأثقال وراءهم، حتّى يلتحقوا بهم شيئا فشيئا، ليرعبوا قلوب أهل البلد. فلمّا رأى أهل سمرقند سوادهم، استعظموهم. فلمّا كان اليوم الثّاني، وصل الأسارى، والرّجّالة، والأثقال؛ ومع كلّ عشرة أسارى علم. فظنّ أهل البلد أنّ الجميع عسكر مقاتلة. فأحاطوا بسمرقند؛ وفيها خمسون ألفا من الخوارزميّة، وما لا يحصى كثرة من عوامّ البلد. فأحجم العسكر الخوارزميّ عن الخروج إليهم، وخرجت العامّة بالسّلاح؛ فأطمعهم التّتار في أنفسهم، وقهقروا عنهم؛ وقد كمّنوا لهم كُمناء. فلمّا جاوزوا الكمين، خرج عليهم من ورائهم، وشدّ عليهم من ورائهم جمهور التّتار؛ فقتلوهم عن آخرهم.

فلمّا رأى من تخلّف بالبلد ذلك، ضعفت قلوبهم، وخيّلت للجند الخوارزميّ أنفسهم أنّهم إن استأمنوا التّتار أبقوا عليهم للمشاركة في جنسيّة التّركيّة. فخرجوا بأموالهم وأهليهم إليهم مستأمنين. فأخذوا سلاحهم وخيلهم، ثمّ وضعوا السّيف فيهم. فقتلوهم كلّهم. ثمّ نادوا في البلد: "برئت الذّمّة ممّن لم يخرج؛ ومن خرج

فهو آمن». فخرج النّاس إليهم بأجمعهم. فاختلطوا عليهم؛ ووضعوا فيهم السّيف، وعذّبوا الأغنياء منهم، واستصفوا أموالهم، ودخلوا سمرقند. فأخربوها، ونقضوا دُورها.

وكانت هذه الوقعة في المحرّم سنة سبع عشرة وستّمائة.

[انحدار جيش خوارزمشاه]

وكان خوارزمشاه مقيماً بمنزله الأوّل؛ كلّما اجتمع إليه جيش سيّره إلى سمرقند، فيرجع لا يقدم على الدّخول إليها. فلمّا قضوا وطراً من سمرقند، سيّر جنكزخان عشرين ألف فارس، وقال لهم: «اُطلبوا خوارزمشاه أين كان، ولو تعلّق بالسّماء، حتّى تدركوه وتأخذوه!».

وهذه الطائفة تسمّيها التّتار «المغرّبة»، لأنّها سارت نحو غرب خراسان، وهم الذين أوغلوا في البلاد، ومقدّمهم جرماغون (١)، نسيب جنكزخان.

---

(١) جرماغون هو أحد قوّاد الجيش المغولي اللاّمعين، وهو الذي فتح أذربيجان (١٢٢٣م)، وأرمينيا (١٢٣٦م)، وجيورجيا (١٢٢٩م). لكن -حسب النّسوي- قائدان آخران هما اللّذان قادا هذه العمليّات؛ وهما: جيبي نويان، وسوبتاي باغادور، وليس جرماغون، كما ظنّه ابن أبي الحديد. ولو وقعت سيرة جلال الدّين للنسوي بين يدي المؤلّف، لما ارتكب مثل هذا الخطأ التّاريخي (قارن فيما سبق، ص: ١٤ وما بعدها). =

وحُكِي أنّ جنكزخان كان قد أمّر على هذا الجيش ابن عمّ له، شديد الإختصاص به؛ يقال له متكلي نويرة (١). وأمره بالجدّ، وسرعة المسير. وقال: "من يُثنِي عزمَه إمرأةٌ لا يصلح لقيادة الجيوش". ورتّب مكانه جرماغون.

فلمّا ودّعه، عطف متكلي نويرة هذا؛ فدخل إلى خركاة، فيها إمرأة له، كان يهواها ليودّعها. فاتّصل ذلك بجنكزخان؛ فصرفه تلك السّاعة عن إمارة الجيش.

فساروا وقصدوا من جيحون (٢) موضعاً

= أمّا جرماغون فلم يظهر إلاّ ابتداء من سنة ١٢٣١م؛ وظلّ على رأس الجيش المغولي، في بلاد فارس، حتّى وفاته عام ١٢٤١م. (انظر فيما يأتي: ص ٦٠، هامش ٢؛ والنّسوي، سيرة جلال الدّين: ١٠٢، ٢٥٤؛ وبرتولد، التّركستان: ٥٢١؛ وكذلك:

Juwaynî, *Ta'rîkh-i djahây*: II, 987*sq*; Grousset, *L'Empire des Steppes*: 301& 306-8; Idem, *L'Empire mongol*: 294 *sq*).

(١) لم نعثر على أثر لهذا الرّجل، ولا للخبر، في المصادر التي رجعنا لها. ولعلّ تحريفاً طرأ على آسم هذا القائد. فمن المعروف أنّ هناك عسكريّا كان جدّ حظيّا لدى جنكزخان، ومحلّ ثقته؛ وهو: مقلي نواّيان. «ونوايان» لقب شرفي مغولي، ويقابله في العربيّة لفظ «نُوَيْن»؛ ومن هنا -لا شكّ- جاء التّحريف (متكلي نُوَيْرة).

(٢) يبدو أنّ ابن أبي الحديد اشتبه عليه نهر المِهران بجيحون أو الأموداريا، الذي ينبع من أفغانستان، ويعبر التركستان والأزباكستان، لينصبّ في بحر الآرال. في حين أنّ المِهران ينبع من مرتفعات التّيبت، ويخترق منطقة البنجاب، بعد مروره حول جبال الهمالايا، لينتهي في مصبّة الضّخم ببحر عُمَان، بعد أن يلتقي بروافده العديدة، خاصّة منها الكابُل، وجبليت، ثمّ البنجاب بروافده الخمسة (التشيناب، والرافو، والدجيلام، والسّتلج، والبِيّاس)؛ ومن هنا جاء تعبير المؤلّف (بنج آب: خمسة مياه). (راجع: *E.I.: Mihrân*, III, 557 & *Pandjâb*, III, 1091).

يسمّى "بنج آب"، أي خمسة مياه؛ وهو يمنع العبور. فلم يجدوا به سفنا. فعملوا من الخشب مثل الأحواض الكبار، ولبّسوه جلود البقر. ووضعوا فيه أسلحتهم. وأقحموا خيولهم الماء، وأمسكوا بأذنابها، وتلك الأحواض مشدودة إليها. فكان الفرس يجذب الرّجل، والرّجل يجذب الحوض. فعبروا كلّهم ذلك الماء دفعةً واحدةً. فلم يشعر خوارزمشاه بهم إلاّ وهم معه على أرض واحدة. وكان جيشه قد مُلِئ رعباً منهم. فلم يقدروا على الثّبات؛ فتفرّقوا أيدي سبأ. وطلب كلّ فريق منهم جهة. ورحل خوارزمشاه في نفر من خواصّه، لا يلوي على شيء؛ وقصد نيسابور. فلمّا دخلها اجتمع عليه بعض عسكره. فلم يستقرّ، حتّى وصل جرماغون إليه.

وكان لا يتعرّض في مسيره بنهب و لا قتل، بل يطوي المنازل طيّاً؛ يطلب خوارزمشاه، ولا يمهله ليجمع عسكراً. فلمّا عرف قرب التّتار منه، هرب من نيسابور إلى مازندران، فدخلها. ورحل جرماغون خلفه. ولم يعرّج على نيسابور، بل قصد مازندران.

فخرج خوازمشاه عنها. فكان كلّما رحل عن منزل، نزله التّتار؛ حتّى وصل إلى طبرستان. فنزل هو وأصحابه في سفن. ووصل التّتار. فلمّا عرفوا نزوله البحر، رجعوا، وأيسوا منه.

وهؤلاء هم الذين ملكوا عراق العجم، وأذربيجان؛ فأقاموا بناحية تِبريز إلى يومنا هذا.

[مصير خوارزمشاه المشوب بالغموض]

ثمّ اختُلِف في أمر خوارزمشاه. فقوم يحكون أنّه أقام بقلعة في بحر طبرستان منيعة، فتوفّي بها(١). وقوم يحكون أنّه غرق في البحر. وقوم يحكون أنّه غرق ونجا عُرياناً. فصعد إلى قرية من قرى طبرستان، فعرفه أهلها. فجاؤوا، وقبّلوا الأرض بين يديه. وأعلموا عاملهم به. فجاء إليه وخدمه. فقال له خوارزمشاه: "احملني في مركب إلى الهند".

فحمله إلى شمس الدّين أنليمش (٢)، ملك الهند؛ وهو نسيبه من جهة زوجته، والدة منكبوني (٣) بن

---

(١) من المرجّح أنّه توفّي فعلاً، بعد أن أنهكه النّصب والارهاق، في جزيرة صغيرة ببحر قزوين، سنة ٦١٧هـ (١٢٢٠م). (انظر: النسوي، سيرة جلال الدّين: ١٠٤-١٠٨).

(٢) هكذا ورد اسمه في شرح نهج البلاغة (ج ٨،/٢٢٧-٢٢٨)؛ وهذا خطأ -بدون شكّ- من المؤلّف أو من النّاشر. وابن الأثير -بدوره- يسمّيه: لتيمش (الكامل: ج ١٢، ١٦٧). ويتعلّق الأمر، في الواقع، بسلطان دلهي التّركي إلتوتمِش . (انظر:

E.I.: III, 1183; Grousset, *L'Empire des Steppes*: 324;).

(٣) وهو خوارزمشاه جلال الدّين مَنْكُبِرتي، وليس كما يذكره المؤلّف، تارة: منكبوني (شرح النّهج: ج ٨، ٢٢٧)، وطورا: مَنْكَبري (ج ٨، ٢٣٦). (قارن: النسوي، سيرة جلال الدّين مَنكُبِرتي: ٢٤، وغيرها؛ وكذلك: Grousset, *ibid*: 324 & *passim*).

خوارزمشاه الملك جلال الدّين، فإنّها هنديّة من أهل بيت الملك. فيقال: إنّه وصل إلى أنليمش، وقد تغيّر عقله من خوف التّتار، أو لأمر سلّطه الله تعالى عليه. فكان يهذي بالتّتار بُكرةً وعشيّةً؛ وكلّ وقت، وكلّ ساعة؛ وهو يقول: «هو ذا هم! قد خرجوا من هذا الباب! قد هجموا من هذه الدّرجة!». ويرعد، ويحوّل لونه، ويختلّ كلامه، وحركاته.

وحكى لي فقيه خراسانيّ، وصل إلى بغداد، يعرف بالبرهان، قال: «كان أخي معه؛ وكان ممّن يثق خوارزمشاه به، ويختصّه». قال: «لهج خوارزمشاه لمّا تغيّر عقله بكلمة كان يقولها: «قراتتر كلدي؛ ويكرّرها». وتفسيرها: التّتر السّود قد جاؤوا.

وفي التّتر صنف سود(١) يشبهون الزّنج، لهم سيوف عريضة جدًّا على غير صورة هذه السّيوف؛ يأكلون لحوم النّاس. فكان خوارزمشاه قد أهتِر، وأغرِي بذكرهم.

وحدّثني البرهان، قال: "رَقِيَ به شمس الدّين

---

(١) هناك فعلاً ثلاثة أصناف من التّتار: التّتار البيض، وكانوا مستوطنين بالصّين الجنوبيّة، والتّتار المعروفون بالمستوحشين أو من يسمّيهم المغول بشعوب الغابات، وموطنهم أقصى شمال الصّين، ثمّ التّتار السّود، وقد هاجر قسم منهم لينشئ مملكة القرا-خطا، بالتركستان الشّرقيّة، كما تقدّم (ص: ١٩، هامش ١). (انظر:
Barthold, *Histoire des Turcs d'Asie centrale*: 118 & *E.I.*: IV, 736 *sq*).

أنليمش إلى قلعة من قلاع الهند، حصينةٍ، عاليةٍ، شاهقةٍ، لا يعلوها الغيم أبدا، وإنّما تمطر السّحب من تحتها. وقال له: «هذه القلعة لك، وذخائرها أموالك. فكن فيها وادعاً، آمناً، إلى أن يستقيم طالعك؛ فالملوك ما زالوا هكذا، يُدبر طالعهم ثمّ يُقبل». فقال له: «لا أقدر على الثّبات فيها، والمقام بها؛ لأنّ التّتر سوف يطلبونني، ويقدمون إلى هاهنا؛ ولو شاؤوا لوضعوا سروج خيلهم، واحدا على واحد تحت القلعة؛ فبلغت إلى ذروتها، وصعدوا عليها، فأخذوني قبضاً باليد».

فعلم أنليمش أنّ عقله قد تغيّر، وأنّ الله -تعالى- قد بدّل ما به من نعمة. فقال: «فما الّذي تريد؟»". قال: «أريد أن تحملني في البحر المعروف ببحر المعبر إلى كِرمان». فحمله في نفر يسير من مماليكه إلى كرمان. ثمّ خرج منها إلى أطراف بلاد فارس، فمات هناك، في قرية من قرى فارس؛ وأُخفِيَ موته، لئلاّ تقصده التّتر، وتطلب جثّته".

وجملة الأمر: إنّ حاله مشتبهة، ملتبسة، لم تتحقّق على يقين. وبقي النّاس، بعد هلاكه نحو سبع سنين، ينتظرونه. ويذهب كثير منهم، إلى أنّه حيّ، مستتر؛ إلى أن ثبت عند النّاس كافّة أنّه هلك.

خضوع خراسان

فأمّا جرماغون فإنّه لمّا يئس من الظّفر

بخوارزمشاه، عاد من ساحل البحر إلى مازندران، فملكها في أسرع وقت، مع حصانتها، وصعوبة الدّخول إليها، وامتناع قلاعها؛ فإنّها لم تزل ممتنعة على قديم الوقت، حتّى أنّ المسلمين لمّا ملكوا بلاد الأكاسرة من العراق إلى أقصى خراسان، بقيت أعمال مازندران بحالها تؤدّي الخراج، ولا يقدر المسلمون على دخولها، إلى أيّام سليمان بن عبد الملك (١).

ولمّا ملكت التّتار مازندران، قتلوا فيها، ونهبوا، وسلبوا. ثمّ سلكوا نحو الرّيّ؛ فصادفوا في الطّريق والدة خوارزمشاه، ونساءه، ومعهنّ أموال بيت خوارزمشاه، وذخائرهم، الّتي لم يسمع بمثلها من بعض القلاع المنيعة. فاستولى عليهنّ وعلى ما معهنّ بأسره؛ وسيّروه إلى جنكزخان بسمرقند.

وصمدوا صمد الرّيّ، وقد كان اتّصل بهم أنّ محمّدا خوارزمشاه قصدها، كما يتسامع النّاس بالأراجيف الصّحيحة والباطلة. فوصلوها على حين غفلة من أهلها. فلم يشعر بهم عسكر الرّيّ إلاّ وقد ملكوها، ونهبوها، وسبوا الحرم، واسترقّوا الغلمان، وفعلوا كلّ قبيح منكر فيها.

ولم يقيموا بها؛ ومضوا مسرعين في طلب

---

(١) سليمان بن عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي؛ تولّى الخلافة بعد وفاة أخيه الوليد، مدّة سنتين وثمانية أشهر (٦٩-٩٩هـ/٧١٤-٧١٧م).

خوارزمشاه. فنهبوا في طريقهم ما مرّوا به من المدن والقرى. وأحرقوا، وخرّبوا، وقتلوا الذّكران والإناث؛ ولم يبقوا على شيء.

وقصدوا نحو همذان. فخرج إليهم رئيسها، ومعه أموال جليلة قد جمعها من أهل همذان، عيناً وعروضاً وخيلاً، وطلب منهم الأمان لأهل البلد. فأمّنوهم، ولم يعرِضوا لهم.

وساروا إلى زنجان، واستباحوها؛ وإلى قزوين؛ فاعتصم أهلها منهم بقصبة مدينتهم. فدخلوها بالسّيف عنوةً. وقاتلهم أهلها قتالاً شديداً بالسّكاكين -وهم معتادون بقتال السّكّين من حروبهم مع الإسماعيليّة-، فقتل من الفريقين ما لا يحصى. ويقال: "إنّ القتلى بلغت أربعين ألفاً من أهل قزوين خاصّةً".

ثمّ هجم على التّتار البرد الشّديد والثّلج المتراكم؛ فساروا إلى أذربيجان. فنهبوا القرى، وقتلوا من وقف بين أيديهم، وأخربوا، وأحرقوا حتّى وصلوا إلى تِبريز؛ وبها صاحب أذربيجان أزبك بن البهلوان بن أيلدكر(؟). فلم يخرج إليهم، ولا حدّث نفسه بقتالهم، لاشتغاله بما كان عليه من اللّهو وإدمان الشّرب ليلاً ونهاراً. فأرسل إليهم، وصالحهم على مال، وثياب، ودوابّ؛ وحُمِل الجميع إليهم. فساروا من عنده يطلبون ساحل البحر؛ لأنّه مشتًى لهم، والمراعي به كثيرة.

فوصلوا إلى مُوقان، وهي المنزل الّذي نزلته الخُرّميّة (١) في أيّام المعتصم (٢)، وقد ذكره الطّائيّان في أشعارهما(٣) في غير موضع؛ والنّاس -اليوم- يقولون بالغين المعجمة عوض القاف [موغان].

وقد كانوا تطرّقوا في طريقهم بعض أعمال الكُرْج (٤). فخرج إليهم منهم عشرة آلاف مقاتل. فحاربوهم، وهزموهم، وقتلوا أكثرهم. فلمّا استقرّوا بموقان، راسلت الكُرج أزبك ابن البهلوان في الإتّفاق على حربهم. وراسلوا موسى بن أيّوب المعروف بالأشرف -وكان صاحب خِلاط وأرمينيّة- بمثل ذلك. وظنّوا [التّتار] أنّهم يصبرون إلى أيّام الرّبيع وانحسار الثّلوج؛ فلم يصبروا. وساروا من موقان، في صميم الشّتاء، نحو بلاد الكُرج. فخرجت إليهم الكُرج، واقتتلوا قتالاً

(١) الخرّميّة فرقة دينية، نسبة إلى مؤسسها بابك بن خرّم (انظر: الفرق بين الفرق للبغدادي: ٢٦٦-٢٦٨؛ وراجع فيما سبق: ص ٢٠، هامش ١؛ وأيضاً:

Madelung W., *al-Khrramiyya, E I.*, V, 65-67).

(٢) المعتصم بالله الخليفة العبّاسي، محمد بن هارون الرّشيد؛ استمرّت خلافته من سنة ٢١٨هـ/٨٣٣ م. إلى وفاته عام ٢٢٧هـ/٨٤١ م.

(٣) الطّائيّان هما الشّاعران الشهيران المتزامنان والمتنافسان، وكلاهما من قبيلة طيّ: أبو تمّام حبيب بن أوس الطّائي (١٩٠-٢٣١هـ/٨٠٦-٨٤٦ م)، والبحتري أبو عبادة الوليد الطّائي (٢٠٦-٢٨٤هـ/٨٢١-٨٩٧ م).

(٤) الكُرْج هو الإسم الذي كان العرب يطلقونه على جيُورجيا الحالية، وهي إحدى دول الإتّحاد السّوفياتي سابقاً؛ وعاصمتها: تِفليس.

شديداً؛ فلم يثبتوا للتّتار، وانهزموا أقبح هزيمة. فقتل منهم من لا يحصى.

فكانت هذه الوقعة في ذي الحجّة من سنة سبع عشرة وستّمائة.

ثمّ توجّهوا إلى المراغة، في أوّل سنة ثماني عشرة؛ فملكوها في صفر. وكانت لامرأة من بقايا ملوك المراغة، تدبّرها هي ووزراؤها. فنصبوا عليها المجانيق، وقدّموا أسارى المسلمين بين أيديهم؛ وهذه عادتهم، يتترّسون بهم في الحروب، فيصيبهم حدّها، ويسلمون -هم- من مضرّتها. فملكوها عنوةً، ووضعوا السّيف في أهلها، ونهبوا ما يصلح لهم، وأحرقوا ما لا يصلح لهم. وخُذِل النّاس عنهم، حتّى كان الواحد منهم يَقتُل بيده مائة إنسان، والسّيوف في أيديهم لا يقدر أحد منهم أن يحرّك يده بسيفه نحو ذلك التّتري. خذلان صُبّ على النّاس، وأمر سمائيّ اقتضاه!

[سقوط همذان بعد مقاومة شديدة]

ثمّ عادوا إلى همذان. فطالبوا أهلها بمثل المال الذي بذلوه لهم في الدّفعة الأولى؛ فلم يكن في النّاس فضل لذلك، لأنّه كان عظيماً جداً. فقام إلى رئيس همذان جماعة من أهلها، وأسمعوه كلاماً غليظاً. فقالوا:

«أفقرتنا أوّلاً، وتريد أن تَستِصفِيَنا دفعةً ثانيةً! ثمّ لا بدّ للتّتار أن يقتلونا؛ فدعنا نجاهدهم بالسّيف، ونموت كراماً!». ثمّ وثبوا على شحنة، كان للتّتار بهمذان، فقتلوه؛ واعتصموا بالبلد، فحصرهم التّتار فيه. فقلّت عليهم الميرة، وعُدِمت الأقوات. وأضرّ ذلك بأهل همذان، ولم ينل التّتار مضرّة من عدم القوت، لأنّهم لا يأكلون إلاّ اللّحم، والخيل معهم كثيرة، ومعهم غنم عظيمة يسوقونها حيث شاؤوا. وخيلهم لا تأكل الشّعير، ولا تأكل إلاّ نبات الأرض؛ تحفر بحوافرها الأرض عن العروق، فتأكلها.

فاضطُرَّ رئيس همذان وأهلها إلى الخروج إليهم. فخرجوا. والتحمت الحرب بينهم أيّاما؛ وفُقِد رئيس همذان. هرب في سَرَب (١)، قد كان أعدّه إلى موضع اعتصم به، ظاهرَ البلد. ولم يُعلَم حقيقة حاله. فتحيّر أهل همذان بعد فقده، ودخلوا المدينة. واجتمعت كلمتهم على القتال في قصبة البلد إلى أن يموتوا.

وكان التّتار قد عزموا على الرّحيل عنهم لكثرة من قُتِل منهم. فلمّا لم يروا أحدا يخرج إليهم من البلد، طمعوا واستدلّوا على ضعف أهله؛ فقصدوهم، وقاتلوهم.

وذلك في شهر رجب من سنة ثماني عشرة

---

(١) السَّرَب: النّفق تحت الأرض.

وستّمائة.

ودخلوا المدينة بالسّيف. وقاتلهم النّاس في الدّروب. وبطل السّلاح للإزدحام؛ واقتتلوا بالسّكاكين. فقتل من الفريقين ما لا يحصى.

وظهر التّتار على المسلمين، فأفنوهم قتلاً. ولم يسلم منهم إلاّ من كان له نفق في الأرض يستخفى فيه. ثمّ ألقوا النّار في البلد، فأحرقوها.

ورحلوا إلى مدينة أردبيل، وأعمال أذربيجان. فملكوا أردبيل؛ وقتلوا فيها، فأكثروا.

ثمّ ساروا إلى تِبريز؛ وكان بها شمس الدّين عثمان الطُّغرائي، قد جمع كلمة أهلها بعد مفارقة صاحب أذربيجان أزبك بن البهلوان للبلاد خوفاً من التّتار، ومقامه بنقجُوان. فقوّى الطّغرائي نفوس النّاس على الإمتناع، وحذّرهم عاقبة التّخاذل، وحصّن البلد.

فلمّا وصل التّتار، رأوا اجتماع كلمة المسلمين وحصانة البلد؛ طلبوا منهم مالاً وثياباً. فاستقرّ الأمر بينهم على شيء معلوم؛ فسيّروه إليهم. لمّا أخذوه، رحلوا إلى بَيْلقَان.

فقاتلهم أهلها. فملكها التّتار في شهر رمضان من هذه السّنة؛ ووضعوا فيهم السّيف حتّى أفنوهم أجمعين.

ثمّ ساروا إلى مدينة كَنجة، وهي أمّ بلاد أرّان،

وأهلها ذوو شجاعة وبأس وجلد، لمقاومتهم الكُرج، وتدرّبهم بالحرب. فلم يقدر التّتار عليهم؛ وأرسلوا يطلبون مالاً وثياباً. فأرسلوه إليهم. فساروا عنهم.

[غزو الكُرج والدّربند]

فقصدوا الكُرْج؛ وقد أعدّوا لهم. فلمّا صافّوهم، هرب الكُرج. وأخذهم السّيف، فلم يسلم إلاّ الشّريد. ونُهبت بلادهم، وأُخرِبت.

ولم يوغل التّتار في بلاد الكُرج، لكثرة مضايقها، ودربنداتها(١). فقصدوا دربند شروان. فحصروا مدينة شماخي، وصعدوا سورها بالسّلاليم. وملكوا البلد بعد حرب شديدة. وقتلوا فيه فأكثروا.

فلمّا فرغوا، أرادوا عبور الدّربند؛ فلم يُقدِموا عليه. فأرسلوا إلى شروان شاه، ملك الدّربند؛ فطالبوه بإنفاذ رسول يسعى بينه وبينهم في الصّلح. فأرسل إليهم عشرة من ثقاته.

فلمّا وصلوا إليهم جمعوهم، ثمّ قتلوا واحداً منهم بحضور الباقين. وقالوا للتّسعة: "إن أنتم عرّفتمونا طريقاً نعبر فيه، فلكم الأمان وإلاّ قتلناكم كما قتلنا صاحبكم". فقالوا لهم: "لا طريق في هذا الدّربند، ولكن

(١) الدّربندات ج: دربند، وهو البوّابة.

نعرّفكم موضعاً هو أسهل المواضع لعبور الخيل». وساروا بين أيديهم إليه. فعبروا الدّربند، وتركوه وراء ظهورهم. وساروا في تلك البلاد، وهي مملوءة من طوائف مختلفة. منهم اللاّن (١)، واللّكز (٢)، وأصناف من التّرك. فنهبوها، وقتلوا الكثير من ساكنيها.

[غزو بلاد اللاّن والقفجاق]

ورحلوا إلى اللاّن -وهم أمم كثيرة-، وقد وصلهم خبرهم. وجمعوا، وحذروا. وانضاف إليهم جموع من قفجاق، فقاتلوهم. فلم يظفر أحد العسكرين بالآخر. فأرسل التّتار إلى قفجاق، [قائلين لهم]: «أنتم إخواننا، وجنسنا واحد؛ واللاّن ليسوا من جنسكم لتنصروهم، ولا دينهم دينكم. ونحن نعاهدكم ألاّ نَعرِض لكم، ونحمل إليكم من المال والثّياب ما يستقرّ بيننا وبينكم،

---

(١) اللاّن، الآز أو الآزُد: مجموعة قبائل مسيحيّة المعتقد، ومن أصل إيراني، اتّخذت موطنا لها بمرتفعات روسيا الوسطى. لكن ما فتئت أن تشتّت أيدي سبأ، بمجرّد غزو التّتار بلادها، سنة ٦٢٧هـ/١٢٢٩م. (راجع بخاصّة:

Barthold/Minorsky, *Alân, E.I.*: I, 365; Grousset, *L'Empire des Steppes*: 307 *sq* & *L'Empire mongol*: 295-301).

(٢) اللّكز، بالزّاي المعجمة، وليس «اللّكر»، بالرّاء المهملة، -كما ورد في شرح نهج البلاغة- كانوا مستوطنين بالسّهول الواقعة بين منطقة الستامور وشابران، جنوب داغستان الحاليّة. (انظر: المسعودي، مروج الذّهب: ١/١٥٤؛ و:

Barthold/Bennigsen, *Dâghistân, E.I.*: III, 87 sq; Grousset, *L'Empire des Steppes*: 307).

على أن تنصرفوا إلى بلادكم». فاستقرّ الأمر بينهم على مال وثياب، حملها التّتار إليهم. وفارقت قفجاق اللاّن.

فأوقع التّتار باللاّن. فقتلوهم، ونهبوا أموالهم، وسبوا نساءهم. فلمّا فرغوا منهم، ساروا إلى بلاد قفجاق، وهم آمنون، متفرّقون، لِمَا استقرّ بينهم وبين التّتار من الصّلح. فلم يشعروا بهم إلاّ وقد طرقوهم، ودخلوا بلادهم. فأوقعوا بهم الأوّل فالأوّل، وأخذوا منهم أضعاف ما حملوا إليهم.

وسمع من كان بعيد الدّار من قفجاق بما جرى، ففرّوا عن غير قتال. فأبعدوا: بعضهم بالغياض، وبعضهم بالجبال، وبعضهم لحقوا ببلاد الرّوس. وأقام التّتار في بلاد قفجاق، وهي أرض كثيرة المراعي في الشّتاء، وفيها أيضا أماكن باردة في الصّيف، كثيرة المراعي، وهي غياض على ساحل البحر.

غزو روسيا

ثمّ سارت طائفة منهم إلى بلاد الرّوس؛ وهي بلاد كثيرة، عظيمة، وأهلها نصارى. وذلك في سنة عشرين وستّمائة. فاجتمع الرّوس وقفجاق عن منعهم عن البلاد. فلمّا قاربهم التّتار وعرفوا اجتماعهم، رجعوا القهقرى إيهاماً للرّوس أنّ ذلك عن خوف وحذر. فجدّوا في اتّباعهم. ولم يزل التّتار راجعين، وأولئك يَقْفَون آثارهم

اثني عشر يوما.

ثمّ رجعت التّتار على الرّوس وقفجاق، فأثخنوا فيهم قتلاً وأسراً، ولم يسلم منهم إلاّ القليل. ومن سلم نزل في المراكب، وخرج في البحر إلى السّاحل الشّامي؛ وغرق بعض المراكب.

وهذه الوقائع كلّها تولاّها التّتر المُغرّبة، الذين قادهم جرماغون (١).

[جنكزخان بسمرقند]

فأمّا ملكهم الأكبر جنكزخان، فإنّه كان في هذه المدّة بسمرقند، بما رواء النّهر.

فقسّم أصحابه أقساما:

* فبعث قسما منهم إلى فرغانة وأعمالها، فملكوها؛
* وبعث قسما آخر إلى تِرمِذ وما يليها، فملكوها؛
* وبعث قسما آخر إلى بلخ وما يليها من أعمال خراسان.

فأمّا بلخ، فإنّهم أمّنوا أهلها، ولم يتعرّضوا لها بنهب، ولا قتل. وجعلوا فيها شحنة. وكذلك فاريات، وكثير من المدن. إلاّ أنّهم أخذوا أهلها، يقاتلون بهم من

---

(١) أضطرّت روسيا نهائيًا أن تستسلم بدورها، بالرّغم من المقاومة البطوليّة التي قام بها أمير سوزالي، يوري الثّاني. فسقطت بأيدي التّتار كبار مدنها، الواحدة تلوى الأخرى: موسكو، وسوزدال، وفلاديمير (١٢٣٨م)، وكياف، و تشرنيكوف (١٢٤٠م)، الخ... (انظر:
Grousset, *L'Empire des Steppes*: 329 *sq*.).

يمتنع عليهم. حتّى وصلوا إلى الطّالقان، وهي عدّة بلاد، وفيها قلعة حصينة، وبها رجال أنجاد. فأقاموا على حصارها شهوراً، فلم يفتحوها. فأرسلوا إلى جنكزخان يعرّفونه عجزهم عنها. فسار بنفسه؛ وعبر جيحون، ومعه خلق لا يحصى.

فنزل على هذه القلعة. وبنى حولها شبه قلعة أخرى من طين، وتراب، وخشب، وحطب. ونصب عليها المنجنيقات؛ ورمى القلعة به. فلمّا رأى أهلها ذلك فتحوها، وخرجوا، وحملوا حملة واحدة. فقُتِل منهم من قُتِل، وسلم من سلم. وخرج السّالمون، فسلكوا تلك الجبال والشّعاب، ناجين بأنفسهم. ودخل التّتار القلعة، فنهبوا الأموال والأمتعة، وسبوا النّساء والأطفال.

غزو مرو، ونيسابور، و طوس

ثمّ سيّر جنكزخان جيشا عظيما مع أحد أولاده إلى مدينة مرو، وبها مئتا ألف من المسلمين. فكانت بين التّتار وبينهم حروب عظيمة، شديدة؛ صبر فيها المسلمون، ثمّ انهزموا؛ ودخلوا البلد، وأغلقوا أبوابه.

فحاصرهم التّتار حصاراً طويلاً، ثمّ أمّنوا متقدّم البلد. فلمّا خرج إليهم في الأمان، خلع عليه ابن جنكزخان وأكرمه، وعاهده ألاّ يتعرّض لأحد من أهل مرو. ففتح النّاس الأبواب. فلمّا تمكّنوا منهم، استعرضوهم بالسّيف عن آخرهم؛ فلم يُبقُوا منهم

باقية، بعد أن استصفوا أرباب الأموال عُقَيب عذاب شديد، عذّبوهم به. ثمّ ساروا إلى نيسابور، ففعلوا به ما فعلوا بمرو، من القتل والاستئصال. ثمّ عمدوا إلى طوس، فنهبوها وقتلوا أهلها؛ وأخرجوا المشهد الذي به عليّ بن موسى الرِّضَى عليه السّلام (١)، والرّشيد هارون بن المهدي (٢). وساروا إلى هراة، فحصروها. ثمّ أمّنوا أهلها. فلمّا فتحوها قتلوا بعضهم، وجعلوا على الباقين شحنة. فلمّا بعُدوا وثب أهل هراة على الشّحنة فقتلوه. فعاد عليهم عسكر التّتار، فاستعرضوهم بالسّيف. فقتلوهم عن آخرهم.

سقوط خوارزم

ثمّ عادوا إلى طالقان، وبها ملكهم الأكبر جنكزخان. فسيّر طائفة منهم إلى خوارزم؛ وجعل فيها مقدّم أصحابه وكبراءهم؛ لأنّ خوارزم حينئذ كانت مدينة الملك، وبها عسكر كثير من الخوارزميّة؛ وعوامّ

---

(١) علي الرّضى بن موسى الكاظم بن جعفر الصّادق (١٥٣-٢٠٣هـ/٧٧٠-٨١٨م)، ثامن الأئمّة عند الشّيعة الإماميّة. توفّي في عهد الخليفة العبّاسي المأمون. وهو الذي أمر بدفنه قرب ضريح والده هارون الرّشيد، بسناباذ إحدى قرى طوس، لِما كان يكّنه له من عطف ومحبّة.

(٢) هارون الرّشيد بن المهدي (١٤٩-١٩٣هـ/٧٦٦-٨٠٩م)، خامس الخلفاء العبّاسيين وأحد كبارهم. ازدهرت الخلافة في عهده، وبلغت الحضارة العربيّة الإسلاميّة أوجها.

البلد معروفون بالبأس والشّجاعة.

فساروا، ووصلوا إليها. فالتقت الفئتان، واقتتلوا أشدّ قتال سمِع به. ودخل المسلمون البلد. وحصرتهم التّتار خمسة أشهر. وأرسل التّتار إلى جنكزخان يطلبون المدد. فأمدّهم بجيش من جيوشه. فلمّا وصل، قويت منّتهم به، وزحفوا إلى البلد زحفاً متتابعاً. فملكوا طرفاً منه. وولجوا المدينة. فقاتلهم المسلمون داخل البلد. فلم يكن لهم به طاقة؛ فملكوه وقتلوا كلّ من فيه. فلمّا فرغوا منه، وقضَوا وطرهم من القتل والنّهب، فتحوا السِّكْر(١) الّذي يمنع ماء جيحون عن خوارزم؛ فدخل الماء البلد. فغرق كلّه، وانهدمت الأبنية؛ فبقي بحراً. ولم يسلم من أهل خوارزم أحد البتّة. فإنّ غيره من البلاد كان يسلم نفر يسير من أهلها؛ وأمّا خوارزم فمن وقف للسّيف قُتِل، ومن استخفَى غرّقه الماء أو أهلكه الهدم. فأصبحت خوارزم يباباً(٢)!

مواجهة جلال الدّين خوارزمشاه لجنكزخان

فلمّا فرغ التّتار من هذه البلاد، سيّروا جيشاً إلى غزنة. وبها حينئذ جلال الدّين منكبري محمّد بن

---

(١) السِّكْر: الحاجز، أو كلّ ما يُسدّ به النّهر.

(٢) اليباب: الخراب.

خوارزمشاه مالكها، وقد اجتمع إليه من سلم من عسكر أبيه وغيرهم؛ فكانوا نحو ستّين ألفا. وكان الجيش الذي سار إليهم من التّتار اثني عشر ألفا. فالتقوا في حدود غزنة؛ واقتتلوا قتالاً شديداً ثلاثة أيّام. ثمّ أنزل الله النّصر على المسلمين؛ فانهزم التّتر، وقتلهم المسلمون كيف شاؤوا. وتحيّز النّاجون منهم إلى الطّالقان، وبه جنكزخان.

وأرسل جلال الدّين إليه رسولاً يطلب منه أن يعيّن موضعاً للحرب. فاتّفقوا عى أن تكون بكابُل. فأرسل جنكزخان إليها جيشاً. وسار جلال الدّين إليها بنفسه. وتصافّوا هناك. فكان الظّفر للمسلمين؛ وهرب التّتار. فالتجؤوا إلى الطالقان، وجنكزخان مقيم بها أيضا.

وغنم المسلمون منهم غنائم عظيمة. فجرت بينهم فتنة عظيمة في الغنائم. وذلك لأنّ أميراً من أمرائهم، آسمه بُغراق (١)، كان قد أبلى في حرب التّتر هذه، جرت بينه وبين أمير يعرف بملك خان، نسيب خوارزمشاه، مقاولة أفضت إلى قتل أخٍ لبُغراق. فغضب وفارق جلال الدّين في ثلاثين ألفاً. فتبعه جلال الدّين واسترضاه واستعطفه، فلم يرجع. فضعُف جلال الدّين

---

(١) هو سيف الدّين بُغراق الخلجي، وهو من أصل تركي، وينتسب إلى قبيلة خَلج. (النّسوي، سيرة جلال الدّين: ١٥٤).

بذلك.

فبينا هو كذلك، وصله الخبر أنّ جنكزخان قد سار إليه من الطّالقان بنفسه وجيوشه؛ فعجز عن مقاومته وعلم أنّه لاطاقة له به. فسار إلى بلاد الهند، وعبر نهر السّند. وترك غزنة شاغرة كالفريسة للأسد(١)!

فوصل إليها جنكزخان، فملكها. وقتل أهلها، وسبى نساءها، وأخرب القصور؛ وتركها كأمس الغابر.

[خضوع فارس بكاملها]

ثمّ كانت لهم بعد مُلك غزنة واستباحتها، وقائع كثيرة مع ملوك الرّوم بني قلج أرسلان، لم يوغلوا فيها، في البلاد؛ وإنّما كانوا يتطرّقونها وينهبون ما تاخمهم منها. وأذعن لهم ملوك فارس، وكرمان، والتّيز، ومُكران

(١) ابن أبي الحديد لم يعر انتباها لعودة جلال الدّين من الهند. إذ هو، في عام ٦٢١هـ/١٢٢٤م، استغلّ فترة هدوء مؤقّت أظهر المغول خلالها نوعا من الإهمال والتّلاشي، فرجع إلى خوارزم، وحاول لتوّه إعادة بناء قوّاته. وتمكّن من استعادة العديد من المناطق التي كانت بأيدي المغول. لكن هؤلاء لم يتباطؤوا في الرّدّ. فجهّزوا له جيشا يعدّ ما ينيف على الثّلاثين ألف مقاتل. فلم يقدر جلال الدّين عن مواجهته؛ ولم يكن حظّه بأسعد من حظّ والده محمّد. إذ لاذ -في نهاية الأمر- بالفرار نحو جبال دياربكر؛ حيث قتل من طرف بدويّ كردي، في ظروف يشوبها الغموض. (انظر: النسوي، سيرة جلال الدّين: ١٠٤؛ وأيضا:

D'Ohsson, *Histoire des Mongols*: I, 251 *sq*, Pelliot/Hambis, *Les Campagnes de Gengis Khan*: 369; Grousset, *L'Empire des Steppes*: 325-270).

بالطّاعة. وحملوا إليهم الإتاوة. ولم يبق في البلاد النّاطقة باللّسان الأعجميّ بلد إلاّ حكم فيه سيفهم أو كتابهم. فأكثرُ البلادِ قتلوا أهلها؛ وسبق السّيف فيهم العذَل! والباقي أدّى الإتاوة إليهم رغماً. وأعطى الطّاعة صاغراً. ورجع جنكزخان إلى ما وراء النّهر؛ وتوفّي هناك. وقام بعده ابنه قاآن مقامه (١).

[سقوط أصبهان آخر بؤرة للمعارضة]

وثبت جرماغون في مكانه بأذربيجان. ولم يبق لهم إلاّ أصبهان؛ فإنّهم نزلوا عليها مراراً في سنة سبع وعشرين وستّمائة؛ وحاربهم أهلها. وقُتِل من الفريقين مقتلة عظيمة. ولم يبلغوا منها غرضاً. حتّى اختلف أهل أصبهان في سنة ثلاث وثلاثين وستّمائة.

وهم طائفتان: حنفيّة وشافعيّة. وبينهم حروب متّصلة وعصبيّة ظاهرة. فخرج قوم من أصحاب الشّافعي إلى من يجاورهم، ويتاخمهم من ممالك التّتار؛ فقالوا لهم: «أُقصدوا البلد حتّى نسلّمه إليكم. فنُقِل ذلك إلى قاآن بن جنكزخان بعد وفاة أبيه. والمُلك يومئذ منوط بتدبيره. فأرسل جيوشاً من المدينة المستجدّة

---

(١) راجع فيما تقدّم، ص ٣٠، هامش ٢.

الّتي بنوها، وسمّوها قراحرم (١).

فعبرت جيحون مغرّبةً، وانضمّ إليها قوم ممّن أرسلهم جرماغون على هيئة المدد لهم. فنزلوا على أصبهان في سنة ثلاث وثلاثين المذكورة، وحصروها. فاختلف سيفَا الشّافعيّة والحنفيّة في المدينة، حتّى قُتِل كثير منهم. وفُتِحت أبواب المدينة. وفتحها الشّافعيّة على عهدٍ بينهم وبين التّتار أن يقتلوا الحنفيّة، ويعفوا عن الشّافعيّة.

فلمّا دخلوا البلد بدؤوا بالشّافعيّة؛ فقتلوهم قتلاً ذريعاً؛ ولم يقفوا مع العهد الذي عهدوه لهم. ثمّ قتلوا الحنفيّة، ثمّ قتلوا سائر النّاس. وسبوا النّساء، وشقّوا بطون الحبالى، ونهبوا الأموال، وصادروا الأغنياء. ثمّ أضرموا النّار؛ فأحرقوا أصبهان، حتّى صارت تلولاً من الرّماد.

(١) آسم هذه المدينة «قراقرم» وليس كما ذكرها المؤلّف. وكان موقعها على ضفاف نهر الارخوم، قرب أردِننبو الحاليّة، بمنغوليا. وقد أراد جنكزخان أن يجعل منها مقرّاً لحكمه، نحو سنة ١٢٢٠م. لكنّ ابنه أوغوداي هو الذي اتّخذها -فعلاً- كعاصمة رسميّة للدّولة المغوليّة، منذ سنة ١٢٣٥م.
وقد خلّف لنا جان دي بلان-كاربان، الذي زار هذه المدينة سنة ١٢٥٣م - أي بعد ٣٣ عاما من إنشائها- خلّف لنا وصفاً شيّقاً لها، في كتابه «تقرير عن رحلات لبلاد التّتار». ولم يبق -اليوم- من هذه المدينة إلاّ بضعة أطلال. (راجع: برتولد. التركستان: ٦٥٠-٦٥٥؛ وأيضا:
J. du Plan-Carpin, *Relation des Voyages en Tatarie*: 106-108; Barthold/Boyle: *Karakorum*, *E.I.*: VI, 637; Grousset, *L'Empire des Steppes:* 54 & 320).

[غزو إربل وغارات متكررة على الشام]

فلمّا لم يبق بلد من بلاد العجم إلاّ وقد دوّخوه، صمدوا نحو إربل في سنة أربع وثلاثين وستّمائة، وقد كانوا طرقوها مراراً، وتحيّفوا بعض نواحيها فلم يوغلوا فيها.

والأمير المرتَّب بها يومئذ باتكين الرّومي. فنزل عليها في ذي القعدة من هذه السنة منهم نحو ثلاثين ألف فارس، أرسلهم جرماغون، وعليهم مقدّم كبير من رؤسائهم يعرف بجغتاي (١).

فغاداها القتال وراوحها. وبها عسكر جمّ من عساكر الإسلام. فقُتِل من الفريقين خلقٌ كثير. واستظهر التّتار؛ ودخلوا المدينة. وهرب النّاس إلى القلعة؛ فاعتصموا بها. وحصرهم التّتار، وطال الحصار حتّى هلك النّاس في القلعة عطشاً.

وطلب باتكين منهم أن يصالحوه عن المسلمين بمال يؤدّيه إليهم؛ فأظهروا الإجابة. فلمّا أرسل إليهم ما تقرّر بينهم وبينه، أخذوا المال وغدروا به. وحملوا على القلعة بعد ذلك حملاتٍ عظيمةً؛ وزحفوا إليها زحفاً

(١) يعني، بلا ريب، جغتاي أو تشغتاي (Tchagatai) الملقّب بالصغير، كما يذكره المؤلّف فيما يأتي (ص ٦١)، وذلك تمييزاً له من جغتاي، ثاني أبناء جنكزخان، وقد كان أحد كبار الضبّاط المغول، في عهده. (انظر: برتولد، التركستان: ٦٦١).

متتابعاً، وعلّقوا عليها المنجنيقاتِ الكثيرةَ.

وسيّر المستنصر بالله الخليفة (١) جيوشه مع مملوكه، وخادم حضرته، وأخصّ مماليكه به: شرف الدّين إقبال الشّرابي (٢). فساروا إلى تكريت. فلمّا عرف التّتر شخوصهم، رحلوا عن إربل، بعد أن قتلوا منها ما لا يُحصَى. وأخربوها، وتركوها كجوف حمار!

وعادوا إلى تِبريز، وبها مقام جرماغون؛ قد جعلها دار ملكه. فلمّا رحلوا عن إربل، عاد العسكر البغدادي إلى بغداد.

وكانت للتّتار بعد ذلك نهضات وسرايا كثيرة إلى بلاد الشّام. فقتلوا، ونهبوا، وسبوا فيها حتّى انتهت خيولهم إلى حلب، فأوقعوا بها، وصانعهم أهلها وسلطانها.

---

(١) المستنصر بالله بن الظّاهر (٥٨٨-٦٤٠هـ/١١٩٢-١٢٤٢م)، أحد أواخر الخلفاء العبّاسيّين الّذين لعبوا دوراً سياسيّاً هامّاً، وحاولوا إنقاذ الخلافة من التّلاشي، ومن بين المنجزات اللأمعة التي حقّقها، تأسيسه المدرسة المستنصريّة، الّتي تحمل اسمه، سنة ٦١٢هـ/١٢٢٣م، والّتي كانت تعدّ بحقّ من أكبر الجامعات آنئذ، وقد كانت روابط صداقة متينة تشدّ المؤلّف إلى المستنصر، وتخليداً لأعمال الخليفة، نظم ديوانه "المستنصريّات" (نشر خضر العباسي. بغداد ١٩٥٢م).

(٢) شرف الدّين الشّرابي -لا الشّرامي، كما أورده خطأ الأستاذ أبو الفضل إبراهيم، أحد محقّقي شرح نهج البلاغة (ج ٨، ٢٣٨ و٢٤٠)- هو أحد قادة الجيش العبّاسي اللأمعين، في عهد المستنصر وابنه المستعصم.

غزو بلاد كيخسرو

ثمّ عمدوا إلى بلاد كيخسرو، صاحب الرّوم (١). وذلك بعد أن هلك جرماغون، وقام عوضه المعروف ببايسيجو(٢). وكان قد جمع لهم ملك الرّوم قضّه وقضيضه، وجيشه ولفيفه. واستكثر من الأكراد العتمريّة، ومن عساكر الشّام، وجُند حلب. فيقال: "إنّه جمع مائة ألف فارس وراجل". فلقيه التّتار في عشرين ألفاً.

فجرت بينه وبينهم حروب شديدة، قتلوا فيها مقدّمته؛ وكانت المقدّمة كلّها أو أكثرها من رجال حلب، وهم أنجاد أبطال. فقُتِلوا عن آخرهم؛ وانكسر العسكر

---

(١) كيخسرو الثّاني (ت ٦٣٤هـ/١٢٤٥م)، من سلالة سليمان بن قُتُلْمِش السّلجوقي، مؤسّس الدّولة السّلجوقيّة، بعد أن انتزع من أيدي البيزنطيين الجزء الشّمالي الغربي من آسية الصّغرى، في القرن الحادي عشر وبسط سيادته عليه، متّخذا من نيقيّة، أو قُنية، مقرّا لحكمه سنة ٤٧٤هـ/١٠٨١م. وقد استمرّ العرب يطلقون عليها اسم بلاد الرّوم؛ ومن هنا جاء تعبير المؤلّف «صاحب الرّوم». هذا ولم يستطع كيخسرو فعلاً مواجهة المدّ المغولي، فانكسرت جيوشه في موقعة قوز طاغ سنة ٦٤١هـ/١٢٤٢م. لكنّه تمكّن من مهادنة المغول وصيانة حكمه، مقابل دفع جزية سنويّة لهم. (انظر بالخصوص: كارل بروكلمان، تاريخ الشّعوب الإسلاميّة: ٤٠١-٤٠٦؛ و

C. Cahen, *L'Islam des origines au début de l'empire ottoman*: 225-231).

(٢) المعنيُّ هنا هو -بدون شكّ- القائد العسكري الشّهير بايدجو، الذي خلف جرماغون بعد وفاته، على رأس الجيش المغولي من سنة ٦٤٠هـ/١٢٤٢م إلى ٦٥٤هـ/١٢٥٦م(انظر:

Grousset, *L'Empire des Steppes*: 328 & *E.U.*: XI, 246).

الرّومي. وهرب صاحب الرّوم حتّى انتهى إلى قلعة له على البحر، تعرف بأنطاكية، فاعتصم بها. وتمزّقت جموعه؛ وقُتل منهم عدد لا يحصى.

ودخلت التّتار إلى المدينة المعروفة بقيساريّة. ففعلوا فيها أفاعيل منكرة، من القتل والنّهب والتّحريق. وكذلك المدينة المعروفة بسيواس، وغيرها من كبار المدن الرّوميّة. ونخَع لهم صاحب الرّوم بالطّاعة (١)، وأرسل إليهم يسألهم قبول المال والمصانعة. فضربوا عليه ضريبة يؤدّيها إليهم كلّ سنة؛ ورجعوا عن بلاده.

[جغتاي الصّغير أمام أسوار بغداد]

وأقاموا على جملة السّكون والموادعة للبلاد الإسلاميّة كلّها، إلى أن دخلت سنة ثلاث وأربعين وستّمائة. فاتّفق أنّ بعض أمراء بغداد، وهو سليمان بن بُرجم، وهو مقدّم الطّائفة المعروفة بالإيواء، وهي من التّركمان، قتل شحنة من شحنهم في بعض قلاع الجبل، يعرف بخليل بن بدر. فأثار قتله أن سار من تِبريز عشرة آلاف غلام منهم، يطوون المنازل،

(١) نخَع له بالأمر، نُخوعاً: أقرّ له به، وأخلص له فيه.

ويسبقون خبرهم. ومقدّمهم المعروف بجغتاي الصّغير(١). فلم يشعر النّاس ببغداد إلاّ وهم على البلد، وذلك في شهر ربيع الآخر من هذه السّنة، في فصل الخريف.

وقد كان الخليفة المستعصم بالله (٢) أخرج عسكره إلى ظاهر سور بغداد، على سبيل الاحتياط. وكان التّتر قد بلغهم ذلك. إلاّ أنّ جواسيسهم غرّتهم، وأوقعت في أذهانهم أنّه ليس خارج السّور إلاّ خيام وفساطيط مضروبة، لا رجال تحتها، [قائلين لهم]: «إنّكم متى أشرفتم عليهم ملكتم سوادهم وثقلهم؛ ويكون قُصارى أمر قوم قليلين تحتها أن ينهزموا إلى البلد، ويعتصموا بجدرانه». فأقبلت التّتر على هذا الظّنّ، وسارت على هذا الوهم. فلمّا قرُبوا من بغداد، وشارفوا الوصول إلى المعسكر، أخرج المستعصم بالله الخليفة شرف الدّين إقبالاً الشّرابيَّ إلى ظاهر السّور.

وكان خروجه في ذلك اليوم من لطف الله -تعالى- بالمسلمين؛ فإنّ التّتار لو وصلوا -وهو بعدُ لم يخرج-

---

(١) راجع فيما تقدّم، ص: ٥٨ ، هامش١.

(٢) المستعصم بالله، عبد الله بن المستنصر، آخر الخلفاء العبّاسيين. استمرّت خلافته ستّ عشرة سنة (٦٤٠-٦٥٦هـ/١٢٤٢-١٢٥٨م). وقد أمر بإعدامه هولاغو، حفيد جنكزخان، عند احتلاله بغداد سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م.

لاضطرب العسكر، لأنّهم كانوا يكونون بغير قائد ولا زعيم؛ بل كلّ واحد منهم أمير نفسه، وآراؤهم مختلفة، لا يجمعهم رأي واحد، ولا يحكم عليها حاكم واحد. فكانوا في مظنّة الاختلاف والتّفرّق، والاضطراب والتّشتّت.

فكان خروج شرف الدّين إقبال الشّرابيّ في اليوم السّادس عشر من هذا الشّهر المذكور. ووصلت التّتار إلى سور البلد في اليوم السّابع عشر. فوقفوا بإزاء عساكر بغداد صفاً واحداً. وترتّب العسكر البغدادي ترتيباً منتظماً. ورأى التّتر من كثرتهم، وجودة سلاحهم، وعددهم، وخيولهم ما لم يكونوا يظنّونه ولا يحسبونه. وانكشف ذلك الوهم الّذي أوهمهم جواسيسهم عن الفساد والبطلان.

وكان مدبّر الدّولة والوزارة، في هذا الوقت، هو الوزير مؤيّد الدّين محمّد بن أحمد العلقمي (١). ولم يحضر الحرب، بل كان ملازماً ديوان الخلافة بالحضرة. لكنّه كان يمدّ العسكر الإسلامي من آرائه وتدبيراته بما ينتهون إليه، ويقفون عنده.

---

(١) محمّد بن العلقمي آخر وزير عبّاسي، تولّى الوزارة في عهد المستعصم بالله، من سنة ٦٤٣هـ/١٢٤٥م إلى وفاته عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م، بُعيد احتلال هولاغو لبغداد. وقد كانت علاقات ودّ وصداقة وطيدة تشدّه إلى المؤلّف -ابن أبي الحديد- الذي أهداه نسخة من كتابه "شرح نهج البلاغة"، وعدّة مؤلّفات أخرى. (انظر: شرح نهج البلاغة: ج ١، ص٥ وج ٨، ص٢٤١-٤٢؛ وابن الفوَطي، الحوادث الجامعة: ٢٢٦).

فحملت التّتار على عسكر بغداد حملات متتابعة، ظنّوا أنّ واحدة منها تهزمهم، لأنّهم اعتادوا أنّه لا يقف عسكر من العساكر بين أيديهم، وأنّ الرّعب والخوف منهم يكفي ويغني عن مباشرتهم الحرب بأنفسهم. فثبت لهم عسكر بغداد أحسن ثبوت؛ ورشقهم بالسّهام، ورشقت التّتار أيضا بسهامها. وأنزل الله سكينته على عسكر بغداد. وأنزل بعد السّكينة نصره. فما زال العسكر البغدادي تظهر عليه أمارات القوّة، وتظهر على التّتار أمارات الضّعف والخذلان، إلى أن حجز اللّيل بين الفريقين. ولم يصطدم الفيلقان؛ وإنّما كانت مناوشات وحملات خفيفة، لا تقتضي الإتّصال والممازجة، ورشقٌ بالنُّشّاب شديد.

[انسحاب التّتار تحت جنح الظلام]

فلمّا أظلم اللّيل، أوقد التّتار نيرانا عظيمة؛ وأوهموا أنّهم مقيمون عندها؛ وارتحلوا في اللّيل، راجعين إلى جهة بلادهم. فأصبح العسكر البغدادي؛ فلم ير منهم عيناً ولا أثراً. وما زالوا يطوون المنازل،

ويقطعون القُرى، عائدين حتّى دخلوا الدّربند، ولحقوا ببلادهم (١).

* *
*

(١) طبعاً لم يكن هذا الانسحاب إلاّ موقّتاً؛ إذ أنّ المغول ما فتئوا أن أعادوا الكرّة من جديد، بعد خمس عشرة سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م)، بجيش عرمرم بقيادة هولاغو، حفيد جنكزخان. فاحتلّوا بغداد، وأضرموها نيرانا، وأهرقوا أودية من الدّماء، ودمّروا قصورها، ومساجدها، وبيمارستاناتها، ومكتباتها... وهكذا أجهزوا على الخلافة العبّاسيّة، بعد عمر امتدّ خمسة قرون كاملة. فوضعوا بذلك الأمبراطوريّة الإسلاميّة على درب التّجزئة، والتّمزّق، والانحطاط.

فهرس عامّ

للأعلام والكتب والبقاع

* *
*

المراجع العامة

المصادر

العربية و المعربة (١)

* ابن أبي الحديد المدائني، شرح نهج البلاغة:
- (٤ أجزاء)، تحقيق محمد الغمراوي، القاهرة ١٩١١؛
- (٢٠ جزءا)، تحقيق م. أ. إبراهيم، القاهرة ١٩٦٥-٦٧؛
- (٥ أجزاء)، طبع دار الحياة، بيروت ١٩٨٣.

* ابن الأثير عز الدين، الكامل في التاريخ (٩ أجزاء)، القاهرة ١٩٣٨؛ (١٢ جزءا)، بيروت ١٩٦٦-٦٧.

* ابن الفوطي كمال الدين، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، بغداد ١٩٣٢.

* برتولد ف. و.، التركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي، تعريب هاشم ص. ع.، الكويت ١٩٨١.

* بروكلمان ك.، تاريخ الشعوب الإسلامية، تعريب فارس ن. أ./البعلبكي م.، بيروت ١٩٦٨.

* البغدادي عبد القاهر، الفَرق بين الفِرق، تحقيق م. م. عبد الحميد، مطبعة الاستقامة، القاهرة (بدون تاريخ).

* الهمذاني رشيد الدّين، جامع التّواريخ (تاريخ المغول)، م ٢، ج ١، تعريب م. ص. نشأت ومن معه، القاهرة ١٩٦٠.

* المسعودي علي، مروج الذهب (٧ أجزاء)، تحقيق شارل پيلا، بيروت ١٩٦٠-٧٠.

---

(١) راجع المصادر غير العربيّة، بالقسم الفرنسي، ص ٧٧-٧٨.

Achevé d'imprimer par



27130 Verneuil-sur-Avre

N° d'imprimeur : 259
Dépôt légal : 1er trimestre 1995

- Jûzjânî ʿU., *Ṭabaqât-i Nâṣirî*, trad. anglaise de Raverty H. G.: *A general History of the Muḥammadan dynasty* , 2 vol., Londres 1881.
- Kazimirski B., *Dictionnaire arabe-français*, 4 vol., Le Caire 1875.
- Miquel A., *L'Islam et sa civilisation*, Paris 1977.
- Pelliot P. & Hambis L., *Histoire des campagnes de Gengis-khan*, vol. I, Leyde 1951.
- Perroy E., *Le Moyen Âge*, Paris 1967.
- Plan-Carpen (du) J., *Relation des voyages en Tatarie*, La Haye 1735.
- Quatremère E. M., *Histoire des Mongols*, vol. I, trad. du persan du *Jâmiʿ al-tawârîkh de Rashîd al-Dîn*, vol. II, t.I, Paris 1836.
- Robert P., *Le Grand Robert des noms propres*, 7 vol., Paris 1985.
- Zambaur (de) E., *Manuel de généalogie et de chronologie pour l'histoire de l'Islam*, Hannover 1955.

* *
*

*BIBLIOGRAPHIE**

- Barthold W., *Histoire des Turcs d'Asie centrale*, trad. française de Donskine M., Paris 1945.
- Bergeron P., *Traité des Tatars*, Paris 1735.
- Blochet E., *Introduction à l'histoire des Mongols* de Rashîd al-Dîn, Leyde 1910.
- Brockelman C., *GAL = Geschichte der arabischen Litteratur*, 5 vol., Leyde 1937-49.
- Djebli M., *Ibn Abî l-Ḥadîd & les sources de son Sharḥ Nahj al-balâgha* (Manuscrit; Thèse de Doctorat d'Etat), Lyon 1990.
- Idem, *Sharḥ al-âyât al-bayyinât*, éd. Beyrouth (en cours).
- D'Ohsson C., *Histoire des Mongols depuis Tchinguiz-khan jusqu'à Temerlanc*, 4 vol., La Haye/Amsterdam 1834-45.
- *E.I¹. = Encyclopédie de l'Islam* (1ᵉ éd.), 4 vol., Leyde 1913-42.
- *E.I. = Encyclopédie de l'Islam* (2ᵉ éd.), parus jusqu'à présent 5 vol., Leyde 1954-1993.
- *E.U. = Encyclopaedia Universalis*, 22 vol., Paris 1984-85.
- Grousset R., *L'Empire des Steppes*, Paris 1976.
- Idem, *L'Empire mongol*, Paris 1941.
- Idem, *Le Conquérant du monde*, Paris 1944.
- Juwaynî `A. M., *Ta'rîkh-i djahân gushây*, trad. anglaise de Boyle J. A. : *The History of Word conqueror*, Manchester 1958.

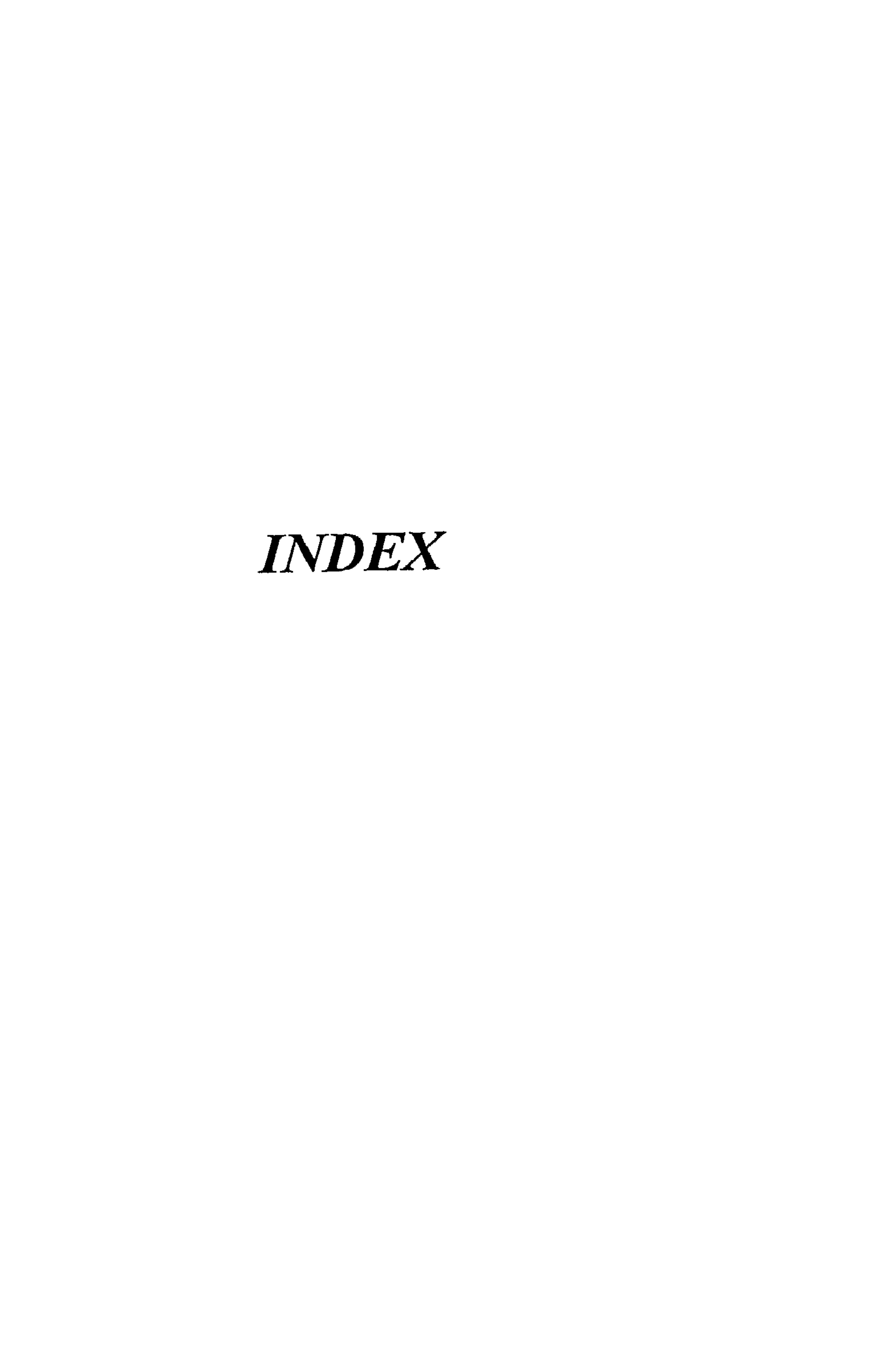
---

* V. Bibliographie arabe, dans la seconde partie, p.72.



* *

*



INDEX

leur camp. Or ils partirent dans l'obscurité, en direction de leur pays.

Le lendemain matin, les Bagdadiens ne virent plus trace des assaillants. Ceux-ci poursuivaient leur retraite, franchissant hâtivement les villages, jusqu'à ce qu'ils aient pénétré dans le Derbend, d'où ils regagnèrent finalement leur pays[72].

* *

*

---

72. Bien entendu, ce retrait n'était que provisoire. Les Mongols retournèrent en effet, quinze ans plus tard, avec une gigantesque armée sous le commandement de Hûlagû. Ils mirent Bagdad à feu et à sang, quarante jours durant. Ils achevèrent un califat 'abbâsside agonisant et vieux de cinq siècles et ouvrirent ainsi la voie à la dislocation, voire, au déclin de l'empire islamique.

Les envahisseurs livrèrent des assauts répétés contre Bagdad. Ils avaient pensé qu'une seule offensive aurait dû suffire, habitués qu'ils étaient à ce qu'aucune armée ne leur résistât et à ce que la terreur, qu'ils semaient, les dispensât de s'engager directement et physiquement dans la bataille. Voilà que l'armée bagdadienne, cependant, tenait bon remarquablement. Elle les arrosa d'une avalanche de flèches, à laquelle ils firent répondre leurs archers.

Dieu, par Sa Miséricorde, accorda la fermeté aux soldats de Bagdad; puis, après la fermeté, la victoire: ils avaient conservé tous les signes de la puissance, alors que l'ennemi commençait à présenter les stigmates de l'épuisement et de l'abattement.

La nuit sépara enfin les deux belligérants, sans qu'il y eût d'engagement frontal entre eux, hormis quelques légères escarmouches et de petites échauffourées, qui n'entraînaient pas de combat direct et de mêlée générale, mais qui étaient accompagnées d'un intense échange de flèches.

[RETRAIT DES FORCES TATARES DANS L'OBSCURITÉ]

Quand il fit nuit noire, les Tatars allumèrent de gigantesques brasiers, faisant croire qu'ils établissaient

jour-là un geste de clémence de Dieu, le Très-Haut, à l'égard des Musulmans. En effet, si les Tatars étaient arrivés avant que ne sorte Sharâbî, l'armée aurait connu des troubles. Car, sans commandant ni dirigeant, elle aurait été en proie à des conflits et à des discordes, chaque soldat étant son propre maître.

Cette sortie, effectuée par Sharaf al-Dîn al-Sharâbî, eut lieu le 16 de ce mois [*rabî` II*/27 juin].

Le 17, les Tatars arrivèrent au rempart. Ils se constituèrent en face de l'armée de Bagdad, en rang unique. Les soldats bagdadiens, quant à eux, prirent leurs positions dans le plus grand ordre. Les Tatars furent frappés par les effectifs considérables de l'armée bagdadienne, par la qualité de son armement et de ses chevaux; ce à quoi ils ne s'attendaient guère. Ainsi leurs illusions, inculquées par leurs espions, se mirent-elles à nu!

Les affaires de l'Etat étaient à l'époque dirigées par le vizir Mu'ayyid al-Dîn Muḥammad Ibn Aḥmad al-`Alqamî[71]. Il n'assista pas aux combats, étant retenu à la cour aux côtés du calife. Mais il n'en prodiguait pas moins ses avis et ses dispositions à l'armée musulmane, qui y obtempérait.

---

71. Muḥammad Ibn al-`Alqamî fut vizir du dernier `abbâsside, al-Musta`ṣim, de 643 H./ 1245 J.C. jusqu'à sa mort en 656 H./1258 J.C., peu de temps après l'occupation de Bagdad par Hûlagû. Des liens d'amitié le liaient avec notre auteur, Ibn Abî l-Ḥadîd, qui lui dédicaça son *Sharḥ nahj al-balâgha* et lui consacra de nombreux poèmes. (Cf. *Sharḥ*: I,5; VIII, 241-42; & Ibn al-Fuwaṭî, *al-Ḥawâdith al-jâmi`a*: 336).

Ils traversèrent les villages à toute allure, afin de prendre les devants. Ils étaient sous le commandement du général Tchagataï le Jeune (*Jakatây al-Ṣaghîr*)[69]. Les habitants de Bagdad ne s'en rendirent compte que lorsqu'ils furent à la périphérie de la ville, en automne, au mois de *rabî` II* [juin] de cette année [643 H./1245 J.C.].

Le calife al-Musta`ṣim bi-llâh[70] avait, par précaution, disposé ses forces armées aux abords du rempart de Bagdad. Les Tatars avaient eu connaissance de cette mesure. Mais leurs informateurs les avaient induits en erreur, en leur faisant croire qu'il n'y avait, en dehors des fortifications, que des tentes et des pavillons quasiment vides, et que s'ils surprenaient leurs rares occupants, ils pourraient maîtriser la plupart d'entre eux et s'emparer de leur matériel et que le petit nombre de rescapés ne pourrait, tout au plus, que se réfugier dans la cité et s'enfermer derrière les remparts.

Emportés par cette illusion, les Tatars s'avancèrent vers Bagdad. Lorsqu'ils furent à proximité du campement, le calife al-Musta`ṣim fit sortir son serviteur et commandant de ses armées, Sharaf al-Dîn al-Sharâbî, au devant du rempart. Cette mesure fut ce

---

69. Cf. *supra*: p.62; note 64.

70. Al-Musta`ṣim bi-llâh, trente-septième et dernier calife abbâsside. Il fut exécuté par Hûlagû, petit-fils de Gengis Khan, à la suite de la chute de Bagdad entre les mains des Mongols, en 656H./1258 J.C.

combattants d'Alep, furent anéanties jusqu'au dernier homme.

L'armée "byzantine" fut mise en déroute et son chef prit la fuite et dut se réfugier dans une citadelle située sur la côte: Antioche. Il s'y enferma. Son armée était en débandade, clairsemée, après les pertes énormes qu'elle avait subies.

Les Tatars entrèrent alors à Césarée. Ils y commirent les pires des atrocités: massacres, pillages et incendies. Ils traitèrent de même Sivas ainsi que les autres grandes villes byzantines. Le souverain fut contraint de capituler. Il envoya aux Tatars un émissaire leur signifiant qu'il était disposé à se soumettre et à payer un tribut. Ils fixèrent une somme qu'il devrait leur verser annuellement. [Les envahisseurs] évacuèrent alors le pays.

[TCHAGATAÏ LE JEUNE SOUS LES MURAILLES DE BAGDAD]

Les Tatars régnèrent, depuis, sur leurs territoires pacifiquement et en bonne intelligence avec tous les pays musulmans, jusqu'en 643 [1245 J.C.], date à laquelle Sulaymân Ibn Burjum, un émir de Bagdad et commandant de la division armée de Turcomans, dite *al-'Îwâ'*, assassina Khalîl Ibn Badr, chef de l'une de leurs garnisons dans une forteresse montagnarde. Dix mille soldats se mirent alors en route à partir de Tabrîz.

Cependant, les Tatars lancèrent de fréquentes offensives et incursions contre la Syrie, tuant et saccageant, jusqu'à ce que leurs chevaux atteignent Alep. Ils l'assaillirent. Mais les habitants et le sultan les flagornèrent. Ils la quittèrent alors, pour le pays de Kaïkhisrû[67]. Bâbâyzîjû[68] succéda à Tchormagan, qui venait de périr.

[DÉROUTE DE L'ARMÉE DE KAÎKHISRÛ]

Le souverain de "Byzance" avait rassemblé toutes ses forces armées. Il avait appelé à la rescousse un très grand nombre de Kurdes et de soldats de Damas et d'Alep.

On dit qu'il avait pu ainsi réunir quelque cent mille hommes, entre cavaliers et fantassins. Quant aux Tatars, ils les affrontèrent à vingt mille hommes.

Les combats furent très violents. Les troupes avancées, constituées -toutes ou presque- de vaillants

---

67. Kaïkhisrû II (m. 1245 J.C.), de la descendance de Sulaymân Ibn Qutulmish, fondateur de la dynastie seljûqide qui, après s'être emparé de la région nord-ouest de l'Asie mineure, au XIe siècle, installa son pouvoir à Qonya, en 1081 J.C. Les Arabes considéraient toujours cette région comme faisant partie de Byzance, d'où l'expression de l'auteur: Bilâd al-Rûm (Pays romain). Kaïkhisrû ne put résister longtemps aux attaques mongoles. En 1243 J.C., les Tatars emportèrent une victoire décisive à l'ultime bataille de Köseh-Dagh et mirent l'armée seljûqide en pièces. Enfin, pour sauver ce qui lui restait de ses territoires, Kaïkhisrû finit par conclure un pacte de paix avec les Mongols, en échange d'un tribut annuel. (V. surtout: K. Brockelmann, *Târîkh al-shu'ûb al-islâmiyya*, 401-406 et C. Cahen, *L'Islam des origines au début de l'Empire ottoman*: 225-31).

68. Il s'agit, sans doute, du général Baïdju, qui succéda à Tchormagan de 1242 à 1256 (cf. *E.U.*: XI, 246; Grousset, *L'Empire des Steppes*: 328).

Les habitants se réfugièrent dans la citadelle. Les envahisseurs maintinrent très longtemps le siège, au point que les assiégés mouraient de soif.

Bâtkîn, au nom des Musulmans, leur proposa de conclure la paix, contre un tribut qui leur serait payé. Les Tatars firent mine d'accepter. Mais lorsque l'émir leur fit parvenir la somme convenue, ils s'en saisirent et le trahirent. Ils lancèrent alors contre la forteresse des assauts répétés et de grande envergure, en faisant usage de nombreuses catapultes.

[INCURSIONS MONGOLES EN SYRIE]

C'est alors que le calife al-Mustanṣir bi-llâh[65] mit en route ses armées, sous le commandement de son fidèle serviteur et l'un des préférés de sa cour, Sharaf al-Dîn Iqbâl al-Sharâbî[66]. Elles s'avancèrent vers Takrît. Dès que les Tatars eurent vent de cette marche, ils abandonnèrent Irbil en ruines, après avoir massacré un nombre considérable d'habitants. Ils regagnèrent enfin Tabrîz, désormais capitale et lieu de résidence de Tchormagan. Les envahisseurs ayant quitté Irbil, l'armée califale rentra à Bagdad.

---

65. al-Mustanṣir bi-llâh b. al-Ẓâhir (588-640 H./1192-1242 J.C.), un des derniers califes abbâssides a avoir joué un rôle prépondérant dans tous les domaines. Parmi ses plus importantes réalisations, la fondation, en 631 H./1233 J.C., de la grande université bagdadienne, portant son nom: la *Mustanṣiriyya*. Des liens d'amitié le liaient à notre auteur, qui lui consacra un recueil de poèmes, intitulé *al-Mustanṣiriyyât (Ed. Bagdad, 1952).*

66. Sharaf al-Dîn al-Sharâbî, et non al-Sharâmî [الشرامي] comme le transcrit faussement Abû l-Faḍl Ibrâhîm, éditeur du *Sharḥ nahj al-balâgha* (VIII, 238 & 240).

par les Shâfi`ites, conformément à l'accord conclu avec les Tatars qui, en contrepartie, devaient s'engager à les épargner et à ne tuer que les Ḥanafites.

Mais dès qu'ils pénétrèrent dans la ville, ils commencèrent tout d'abord par massacrer massivement les Shâfi`ites, contrairement à leurs promesses; puis les Ḥanafites et l'ensemble de la population. Ils capturèrent les femmes et éventrèrent celles qui étaient enceintes. Ils pillèrent et dépouillèrent les riches de leurs fortunes. Ils incendièrent ensuite Ispahan et la réduisirent en un tas de cendres.

[INVASION DE LA VILLE D'IRBIL]

Une fois toute la Perse subjuguée, les Tatars se dirigèrent vers Irbil en 634 [1236 J.C.]. Ils s'en étaient approchés à plusieurs reprises. Ils avaient même pénétré dans ses alentours, mais sans s'y enfoncer. L'émir, régissant alors cette ville, était Bâtkîn al-Rûmî. Trente mille cavaliers tatars furent lancés par Tchormagan et commandés par un de ses grands généraux, nommé Tchagataï (*Jakatây*) [(64)].

Les combats firent rage, nuit et jour. Les pertes furent très lourdes dans les deux camps. Les Tatars prirent finalement le dessus. Ils entrèrent dans la ville.

---

64. Il s'agit de l'un des plus brillants lieutenants du second fils de Gengis Khan, nommé lui-même Tchagataï, originaire de la tribu mongole Sonit. Il était connu sous le nom de Tchagataï le Jeune (*al-Ṣaghîr*), comme le cite l'auteur plus loin (p. 66), pour le distinguer certainement de l'autre Tchagataï. (Cf. Barthold, *Turkistân*: 661).

fites[61] et Shâfi`ites[62]. Certains partisans de Shâfi`î se rendirent alors auprès des Tatars, dans les régions limitrophes, leur disant: "Dirigez-vous vers la ville, nous la remettrons entre vos mains". Ceci parvint aux oreilles du *Qâ'ân*, fils de Gengis Khan, qui avait la charge du royaume, à la suite de la disparition de son père. Il dépêcha une armée, depuis sa nouvelle capitale, construite tout récemment et baptisée Qaraqorum[63].

Cette armée traversa l'Oxus et se dirigea vers l'Ouest. Rejointe par des renforts envoyés de la part de Tchormagan, elle vint mettre le siège devant Ispahan, en cette année 633 [1235 J.C.], que nous venons d'évoquer.

Des combats se déroulèrent dans la ville entre Shâfi`ites et Ḥanafites, faisant de nombreuses victimes. Les portes de la cité furent ensuite ouvertes

---

61. Les Ḥanafites, partisans de l'Imâm Abû Ḥanîfa (696-767 J.C.), théologien juriste et fondateur de la deuxième des quatre grandes écoles juridiques islamiques sunnites.

62. Les Shâfi'ites adeptes de l'Imâm al-Shâfi'î Abû 'Abd Allâh (767-820 J.C.), théologien législateur et fondateur de la quatrième grande école juridique de l'Islam orthodoxe.

63. Qaraqorum, transcrite faussement par notre auteur "Qarâḥurm" [قراحرم] (*Sharḥ* : VIII, 237), était sur la rive droite de l'Orkhon, à proximité de l'actuel Erdeninbu, en Mongolie. Elle fut théoriquement la capitale de Gengis Khan, vers l'an 1220 J.C. Mais ce n'est qu'en 1235 J.C., au règne d'Ögödei, qu'elle devint effectivement la capitale officielle de l'Etat mongol. J. du Plan-Carpin, qui a visité Qaraqorum en 1253 J.C., c'est-à-dire 33 ans après sa fondation, en donne, dans ses *Voyages en Tatarie* (p.106-108), une description très intéressante.
De nos jours, il ne reste de cette cité que des ruines. (Barthold, *Turkistân*: 650-55; Idem/Boyle, *E.I: Karakorum*: IV, 637; Grousset, *L'Empire des Steppes*: 54 & 320).

Arslân, souverains de Byzance. Sans pénétrer profondément dans ce pays, ils firent des incursions et des pillages dans les régions frontalières.

Les rois de Perse, de Kirmân, de Tîz et de Mukrân se soumirent tous et leur payèrent un tribut. Toutes ces contrées se trouvèrent sous leur coupe, gouvernées par leur épée ou leur décret. La plupart des habitants furent massacrés, le glaive ayant précédé la sommation [سبق السيف العذل] (*sabaqa 'al-sayf al-'adhal)*! Les autres, contraints et forcés, durent s'acquitter d'un tribut et faire acte d'allégeance dans l'humiliation.

Gengis Khan retourna, enfin, en Transoxiane, où il mourut. Son fils *Qâ'ân* (60) lui succéda.

[CHUTE D'ISPAHAN, DERNIÈRE POCHE DE RÉSISTANCE]

Le général Tchormagan se fixa en Azerbaïdjan. Seul Ispahan demeura hors de sa sphère, en dépit de ses attaques répétées, en 627 [1229 J.C.], auxquelles la population résista fermement. Et les deux camps subirent d'énormes pertes. Les Tatars ne purent en venir à bout que lorsqu'un conflit éclata parmi les habitants d'Ispahan en 633 [1235 J.C.]. En effet, des luttes fratricides perpétuelles et dues, de toute évidence, au fanatisme, opposaient notamment Ḥana-

---

60. Cf. *supra*: p. 30, note 35.

lui quelque trente mille hommes. Khwârizm-shâh le suivit et essaya de le réconcilier, mais en vain; il refusa de revenir.

Alors qu'il se retrouva affaibli et vulnérable, Jalâl al-Dîn apprit la nouvelle de la marche de Gengis Khan contre lui, depuis Tâleqân. Il savait qu'il ne pouvait plus rien contre lui et que, faible comme il était, il serait incapable de lui résister. Il s'enfuit en Inde et franchit l'Indus[59].

Ghazna fut ainsi abandonnée sans défense, livrée à elle-même, telle une proie pour le lion. Gengis Khan arriva à Ghazna. Il en prit possession. Il tua les hommes et captura les femmes. Puis, il détruisit les maisons et laissa la ville en ruines, comme au temps jadis.

[SOUMISSION TOTALE DE LA PERSE]

Après leur mainmise sur Ghazna, les Tatars livrèrent de nombreux combats contre les Banû Qalj

---

59. Ibn Abî l-Ḥadîd néglige le retour de Jalâl al-Dîn de l'Inde. En effet, en 1224 J.C., profitant de l'indifférence manifestée par les Mongols dans cette région, Khwârizm-shâh revint en Perse. Il reconstitua ses forces armées et lança une offensive de grande envergure, contre les occupants. Il parvint à reconquérir plusieurs de ses anciennes provinces. La réaction mongole ne se fit pas attendre. Une armée, forte de 30.000 hommes, fut envoyée pendant l'hiver de l'année 1230-31 J.C., sous le commandement du général Tchormagan (cf. *supra*: p. 36, note: 37), face à laquelle Jalâl al-Dîn ne put résister et son armée fut taillée en pièces. Il prit finalement la fuite, vers les montagnes de Diyâr bakr, où il fut assassiné, dans des conditions mystérieuses, par un paysan kurde, le 15 août 1231 J.C.. (Nesawî, *Sîrat Jalâl al-Dîn*: 104; D'Ohsson, *Histoire des Mongols*: I, 251 *sq*; Pelliot/Hambis, *Les Campagnes de Gengis Khan*: 369; Grousset, *L'Empire des Steppes*: 325-27).

Jalâl al-Dîn Mankubirtî, fils de Muḥammad Khwârizm-shâh. Celui-ci avait pu, avec les débris de l'armée de son père et d'autres soldats rescapés, former une force militaire forte de quelque soixante mille hommes. L'armée tatare, qui avançait vers Ghazna, en comptait douze mille.

Les deux adversaires se rencontrèrent aux alentours de la ville. Des combats acharnés durèrent trois jours. Finalement Dieu accorda la victoire aux Musulmans, qui tuèrent beaucoup de Tatars. Les survivants prirent la fuite vers Tâleqân, pour y rejoindre Gengis Khan.

Jalâl al-Dîn envoya un émissaire à ce denier lui demandant de fixer un lieu de combat. Ce fut Kâbul qui fut choisie. Gengis Khan dépêcha son armée. Jalâl al-Dîn en personne assista à la bataille. Les armées s'affrontèrent et la victoire fut accordée cette fois encore aux Musulmans. Les Tatars s'enfuirent vers Tâleqân, où Gengis Khan se trouvait toujours. Les Musulmans firent de gros butins qui furent à l'origine de graves dissensions. En effet, un de leurs généraux, nommé Bughrâq[57], qui s'était battu vaillamment dans cette guerre, contre les Tatars, eut une querelle avec un autre émir, Mâlik Khân[58], qui causa la mort de son frère. Bughrâq quitta alors Jalâl al-Dîn, entraînant avec

---

57. Sayf al-Dîn Bughrâq, originaire de la tribu turque: Khulj. (Nesawî, *Sîrat Jalâl al-Dîn*: 154).

58. Mâlik Khân, beau-frère de Jalâl al-Dîn et gouverneur de Hérât. (Nesawî, *ibid.*)

contenait une armée très importante. La population civile était réputée pour sa bravoure et son courage.

[Les Tatars] arrivèrent. Les deux camps se livrèrent ardemment une bataille inouïe. Les Musulmans se replièrent dans la ville. Les assaillants leur imposèrent un siège de cinq mois. Mais ils finirent par demander du renfort à Gengis Khan, qui leur dépêcha l'un de ses propres bataillons. Ainsi leurs forces redoublées, les Tatars envahirent le pays et le conquérirent en partie. Ils pénétrèrent, enfin, dans la ville. Les Musulmans tentèrent vainement de leur résister; mais ils furent maîtrisés et exterminés.

Une fois rassasiés de pillages et de tueries, les assaillants ouvrirent la digue qui protégeait le Khwârizm de l'Oxus. L'eau envahit le pays qui fut complètement inondé. Les maisons s'effondrèrent; et il ne resta plus qu'un lac. Il n'y eut aucun survivant. Car contrairement aux autres régions où il y aurait eu des rescapés, les habitants du Khwârizm périrent tous, les uns par le glaive et les autres, noyés ou ensevelis sous les décombres. Le Khwârizm fut ainsi désolé!

[GENGIS KHAN ET JALÂL AL-DÎN KHWÂRIZM-SHÂH]

Ayant terminé avec le Khwârizm, les Tatars dirigèrent leurs troupes sur Ghazna, dont le souverain était

profanèrent le mausolée de `Alî Ibn Mûsâ a-Riḍâ [54] - que la paix soit sur lui!- et celui du calife al-Rashîd Hârûn Ibn al-Mahdî [55]. Ensuite, ils allèrent faire le siège de Hérât. Ils promirent la vie sauve à ses habitants. Mais, une fois que ceux-ci eurent ouvert les portes de la ville, ils y pénétrèrent. Ils en tuèrent quelques-uns et désignèrent, à la tête des autres, un gouverneur militaire [56].

A peine les conquérants se furent-ils éloignés que les citoyens se lancèrent sur lui et l'assassinèrent. Les soldats rebroussèrent chemin et employèrent leurs épées, parmi la population. Personne ne fut épargné!

[CONQUÊTE DU KHWÂRIZM]

Ils revinrent par la suite à Tâleqân, où se trouvait leur souverain suprême Gengis Khan. Ce dernier envoya un détachement de cette armée au Khwârizm, avec en tête, ses généraux du plus haut rang. Le Khwârizm était à cette époque le siège du roi et

54. `Alî al-Riḍâ b. Mûsâ l-Kâẓim b. Ja`afar al-Ṣâdiq (770-818 J.C.), huitième imâm des Shî`ites duodécimains.

55. Hârûn al-Rashîd (766-809 J.C.) cinquième calife `abbâsside, dont les contes des *Mille et une nuits* firent le calife le plus célèbre, en Orient comme en Occident. Son ère fut l'âge d'or de la civilisation arabo-islamique. Et sa capitale, Bagdad, fut la plaque tournante du Moyen-Age.

56. Il s'agit de Tocutchar nommé pour cette fonction par Toley, fils de Gengis Khan, qui était alors à la tête de cette armée. (Grousset, *L'empire des Steppes*: 302).

Les Tatars entrèrent dans le château-fort. Ils pillèrent argent et biens, et capturèrent femmes et enfants.

[CAMPAGNES CONTRE MERV, ṬÛS ET NÎSHÂPÛR]

Gengis Khan plaça ensuite son fils à la tête d'une autre grande armée, qu'il fit marcher sur Merv, ville peuplée de deux cent mille Musulmans. Des batailles acharnées et intensives s'ensuivirent. Les Musulmans résistèrent un certain temps, puis furent vaincus. Ils se replièrent dans la ville, après avoir fermé ses portes.

Les Tatars les assiégèrent longtemps. Puis ils accordèrent un sauf-conduit au gouverneur de la ville. Lorsque celui-ci sortit, en sûreté, le fils de Gengis Khan l'honora et lui offrit des présents et des vêtement d'apparat, lui promettant de ne causer aucun mal au citoyens de Merv. Ces derniers ouvrirent les portes [d la ville]. Les Tatars, les tenaient d'ores et déjà à leu merci. Après avoir extorqué leurs richesses, en usan de toutes sortes de tortures, ils les passèrent au fil de l'épée, jusqu'au dernier, sans épargner personne.

Ils se mirent en marche, ayant pour destination cette fois-ci, Nîshâpûr où ils commirent les mêmes tueries et exactions. Ils se dirigèrent encore vers Ṭûs. Ils la mirent à sac et décimèrent ses habitants. Ils

• Le premier fut envoyé à Ferghâna et ses provinces, dont il s'empara rapidement;

• Le second à Tirmidh et ses environs, dont il fit également la conquête;

• Et le troisième, enfin, à Balkh et les régions limitrophes, dans le Khurâsân.

En ce qui concerne Balkh, les Tatars épargnèrent ses habitants. Ils ne se livrèrent pas aux pillages, ni aux massacres habituels. Ils y placèrent une garnison, ainsi qu'à Fâryât et de nombreuses autres localités. Mais ils contrôlèrent de force leurs habitants, en vue de combattre les récalcitrants.

Ils partirent au Tâleqân, ensemble de contrées situées autour d'une place forte, tenue par des hommes intrépides. Ils l'assiégèrent plusieurs mois, mais en vain. Ils envoyèrent informer alors Gengis Khan de leur impuissance. Celui-ci décida de venir lui-même sur place. Il traversa l'Oxus avec une armée gigantesque.

Aussitôt arrivé devant le château-fort, il fit bâtir, tout autour, une sorte de citadelle d'argile, de terre, de bois et de fagots, sur laquelle il fit installer des catapultes afin de bombarder les assiégés. Ceux-ci décidèrent d'effectuer une sortie générale et en force, et de lancer une attaque impétueuse contre l'ennemi. Mais beaucoup d'entre eux furent tués. Les rescapés, pour sauver leur vie, s'enfuirent dans les montagnes.

Chrétiens. Les Russes et les Qiptchâq s'unirent pour défendre le pays. Les Tatars s'étant avancés et ayant appris cette alliance, se replièrent pour faire croire aux Russes qu'ils les redoutaient ou, tout au moins, qu'ils se tenaient sur leurs gardes. [Les Alliés] se lancèrent alors vaillamment à leur poursuite. Les Tatars n'arrêtèrent pas leur retraite et les autres continuèrent à suivre leurs traces, vingt-deux jours durant.

Soudain, les Tatars se retournèrent contre les Russes et les Qiptchâq et les massacrèrent ou les capturèrent. Seul un petit nombre d'entre eux réussit à s'échapper. Ils se rendirent par mer sur des embarcations, jusqu'à la côte syrienne. Quelques-unes de ces embarcations firent naufrage(53).

Toutes ces batailles furent menées par les Tatars dits (*al-Mugharriba*), commandée par Tchormagan.

[GENGIS KHAN A SAMARQAND]

Quant à leur souverain suprême, Gengis Khan, il était durant cette période à Samarqand, en Transoxiane.

Il avait réparti son armée en trois bataillons:

---

53. La Russie dut se soumettre également, malgré la résistance du puissant Duc de Souzalie, Youri II. De nombreuses villes furent quasiment détruites et ravagées par le feu: Souzdal et Vladimir (le 14 février 1238 J.C.); d'autres mises à sac: Moscou (1238 J.C.), Kiev et Tchernigov (1240 J.C.), etc. (Grousset, *L'Empire des Steppes*: 329 *sq*.).

mal ne vous sera fait. Nous vous présenterons de l'argent et des vêtements, en gage d'amitié, à condition que vous regagniez votre pays". Ayant reçu la quantité déterminée d'argent et d'habits, les Qiptchâq rompirent leur alliance avec les Alains. Les Tatars battirent alors ces derniers à plate couture. Ils les massacrèrent, pillèrent leurs richesses et capturèrent leurs femmes.

Aussitôt fini avec ceux-ci, ils reprirent la route pour le Khanat des Qiptchâq. Ces derniers étaient dispersés, se croyant en sécurité, après le pacte conclu avec les Tatars. Ils ne s'attendaient guère à leur arrivée subite. Les assaillants entrèrent dans le pays. Ils les exterminèrent l'un après l'autre et reprirent ce qu'ils leur avaient donné au centuple.

Les Qiptchâq des régions les plus reculées apprirent ces événements. Sans chercher à combattre, ils prirent la fuite au loin; les uns dans les forêts, les autres dans les buissons et certains d'autres se réfugièrent au pays des Russes. Les Tatars, quant à eux, s'installèrent dans le pays des Qiptchâq; ce pays si riche avec ses nombreux pâturages d'hiver, ses régions tempérées en été et ses buissons côtiers.

[INVASION DE LA RUSSIE]

En 620 [1223 J.C.], une partie des Tatars rejoignit la Russie, contrée très vaste et peuplée de

s'avancèrent dans ces contrées peuplées de diverses tribus, dont: les Alains (*al-Lân*)(50), les Lezghiens (*al-Lakz*)(51) et d'autres peuplades turques(52). Ils pillèrent ces pays et tuèrent de très nombreux habitants.

[INVASION DES STEPPES RUSSES]

Les Tatars se dirigèrent après vers le pays des Alains, peuple constitué de plusieurs ethnies. Ces derniers eurent vent de l'arrivée des Tatars. Ils mobilisèrent toutes leurs forces et restèrent sur leurs gardes. Des groupes des Qiptchâq vinrent les rejoindre. Ils engagèrent enfin le combat contre les envahisseurs. Mais aucun des deux adversaires ne put arracher la victoire.

Les Tatars envoyèrent un message aux Qiptchâq, leur disant: "Vous êtes nos frères; nous sommes du même sang. Les Alains ne sont pas de votre race. Pourquoi les soutenez-vous? Leur religion, non plus, n'est pas la vôtre! Nous vous promettons qu'aucun

---

50. Les Alains, Ases ou Asod, d'origine iranienne et descendants des anciens Sarmats, vivaient dans les steppes de la Russie méridionale, et avaient comme capitale la ville de Maghas ou Monkas. Une fois leur pays occupé par les Mongols, en 1239 J.C., ils furent dispersés. (Barthold/ Minorsky, *Alân*, *E.I.*: I, 365; Grousset, *L'Empire des Steppes*: 307, 329 *sq* et *L'Empire mongol*: 295-301).

51. Les Lezghiens ou Lezgi (pour les Arabes *al-Lakz* [اللكز] et non, comme le suggère l'éditeur du *Sharḥ Nahj al-balâgha: al-Lakr* [اللكر] peuplaient les plaines situées entre le Samur et la ville de Shâberân, au Sud de l'actuel Dâghestân. (Mas'ûdî, *Murûj*: I, 154; Barthold/Bennigsen, *Dâghistân, E.I.*: III, 87 *sq*; Grousset, *L'Empire des Steppes*: 307).

52. Il s'agit, d'après Grousset (ibid), des Tcherkesses et des Turcs qiptchâq.

[INVASION DE LA GÉORGIE ET DU DERBEND]

Les Tatars les laissèrent et se dirigèrent vers la Géorgie. Dès que les forces adverses se disposèrent en lignes, en face d'eux, les Géorgiens fuirent le champ de bataille, mais furent massacrés. Seuls ceux qui avaient pu se sauver au loin, échappèrent à l'épée. Leur pays fut entièrement saccagé et réduit en ruines. Les Tatars ne s'avancèrent pas plus profondément en Géorgie, en raison de ses nombreuses gorges et issues. Ils se rendirent à Derbend-Shirwân. Puis, ils assiégèrent la ville de Shamâkhî dont ils escaladèrent les murailles, à l'aide d'échelles. Et après une bataille acharnée, ils s'emparèrent de la ville et se livrèrent à des massacres intenses.

Leur besogne ayant été achevée, ils voulurent franchir la région du Derbend, mais ils n'y parvinrent point. Ils envoyèrent un émissaire à Shirwân-shâh, son souverain, et exigèrent qu'il déléguât l'un des leurs, en vue de négocier une trêve. Le roi dépêcha une dizaine d'hommes de confiance.

A leur arrivée, les Tatars les réunirent et exécutèrent l'un d'entre eux, en présence des autres. Ils dirent ensuite aux neuf hommes restant: " Si vous nous indiquez un point de passage, vous aurez la vie sauve; si non, nous vous tuerons comme votre compagnon".

Guidés par ces hommes, ils allèrent vers le passage, tout en laissant derrière eux le Derbend. Ils

après la fuite du souverain d'Azerbaïdjan, Azbak Ibn al-Bahlawân, devant les Tatars, et qui résidait depuis lors, à Nakhitchevan. Ṭughrâ'î exhorta les gens à résister. Il les mit en garde contre les conséquences du recul face à l'ennemi et fit fortifier Tabrîz.

Arrivés devant cette ville, les Tatars constatèrent la détermination des Musulmans et les fortifications mises en place pour défendre leur cité, ils réclamèrent de l'argent et des vêtements. Un accord fut obtenu entre les deux parties sur le montant de ce qui leur serait donné et on le leur fit parvenir. Ils en prirent livraison et partirent pour Erânshahr. Ses habitants les combattirent. Mais les assaillants finirent par les maîtriser, au mois de *ramadan* de cette même année 618 [1222 J.C.], et les passèrent, tous, au fil de l'épée.

De là, ils se rendirent à Kandja, principale ville de la région d'Arrân, connue pour le courage, la bravoure et la fermeté de ses habitants. Elle avait acquis cette réputation, grâce à leur résistance aux Géorgiens et à leur grand entraînement au combat. D'ailleurs, les Tatars ne purent les vaincre. Ils se contentèrent de leur demander de l'argent et des vêtements. Ce qui leur fut accordé.

plusieurs jours. Le gouverneur disparut. Il avait fui avec un détachement jusqu'à un poste, préalablement préparé à l'écart de la ville, où ils s'étaient cantonnés.

Perplexes, quant à sa disparition et ne sachant ce qu'il était advenu, les Hamadhâniens se retranchèrent dans la citadelle de la ville et prirent la décision de se battre jusqu'à la mort.

Après avoir subi de lourdes pertes en vies humaines, les Tatars, pour leur part, envisagèrent de partir. Cependant, lorsqu'ils ne virent plus personne, ils furent tentés et pensèrent que cette retraite était due à la faiblesse des habitants. Ils décidèrent alors de revenir les retrouver dans la ville et les combattre. Ceci advint au mois de *rajab* de l'année 618 [février 1222 J.C.].

Les combats se déroulèrent dans les ruelles et prirent une ampleur inégalée, si bien que les armes ne furent plus utilisables, en raison de la cohue; ils se battirent au couteau. Les victimes furent innombrables. Les Tatars eurent finalement le dessus et massacrèrent les Musulmans. Seuls ceux qui avaient pu s'abriter dans les tunnels, sous le sol, échappèrent à la mort. Les Tatars mirent la ville en flammes et partirent pour la ville d'Ardabîl et les provinces d'Azerbaïdjan. Ils assujettirent Ardabîl et y intensifièrent les massacres.

Ils se dirigèrent ensuite vers Tabrîz, où était établi Shams al-Dîn al-Ṭughrâ'î, qui en avait unifié le peuple,

[CHUTE DE HAMADHÂN]

Ils revinrent à Hamadhân. Ils exigèrent de ses habitants une nouvelle somme d'argent, pareille à celle de la fois précédente. Mais ceux-ci furent dans l'impossibilité de rassembler une somme aussi considérable. Une délégation de notables se rendit au gouverneur de Hamadhân, lui exprimant leur mécontentement, en termes durs: "Tu nous as appauvris dans un premier temps, lui dirent-ils, et voilà que tu veux nous achever maintenant, nous liquider! De plus, les Tatars vont certainement nous tuer. Laisse-nous prendre les armes et les combattre et mourir dignement!". Puis ils surprirent un gouverneur, mis en place à Hamadhân par les Tatars. Ils l'abattirent. Ils se retranchèrent ensuite dans la ville. Les Tatars les assiégèrent aussitôt.

Les victuailles vinrent à manquer gravement aux habitants de Hamadhân; alors que les Tatars ne souffrirent pas de la pénurie, car ils ne mangeaient que de la viande. Ils avaient à leur disposition beaucoup de chevaux, ainsi que de grands troupeaux de moutons qu'ils conduisaient devant eux, où ils voulaient.

Leurs chevaux ne mangeaient pas d'orge. Ils ne broutaient que des herbes. Ils creusaient le sol avec leurs sabots, pour déterrer les racines et s'en nourrir.

Le gouverneur de Hamadhân et les habitants durent sortir à leur rencontre. Les combats durèrent

ils ne supportèrent pas le froid. Ils quittèrent alors cette ville pour la Géorgie, au plein milieu de l'hiver. Les Géorgiens vinrent s'opposer à leur arrivée. Les combats firent rage. Mais ils ne purent résister davantage. Ils finirent par subir la pire des défaites. Et les victimes, parmi eux, furent innombrables.

Cette bataille eut lieu au mois de *dhû l-ḥijja* de l'année 617 [mars 1220 J.C.].

Au début de l'année 618 [1221 J.C.], les Tatars se dirigèrent vers Marâgha. Ils en prirent possession, au mois de *ṣafar* [février], l'arrachant des mains d'une descendante de souverains marâghites, qui la gouvernait entourée de ses vizirs. [Les assaillants] lancèrent leur attaque à l'aide de catapultes. Et, comme à l'accoutumée, ils se firent précéder des prisonniers musulmans afin de s'en servir comme boucliers humains, recevant les coups d'épée et assurant leur protection.

En maîtres et de force, ils entrèrent dans la ville. Ils massacrèrent la population, pillèrent ce qui pouvait leur être utile et incendièrent ce qui ne l'était pas. Abasourdis, les habitants furent paralysés par la peur et l'horreur, à tel point qu'un Tatar aurait pu, à lui seul, tuer une centaine d'hommes; et même, épée à la main, aucun d'entre eux n'aurait réagi! Evidemment, cette couardise, qui s'était abattue sur ces gens, était une manifestation de la volonté impénétrable du Ciel!

des vêtements et des montures. Il leur fit porter le tout. Les Tatars le laissèrent pour rejoindre la côte, afin d'y installer leur quartier hivernal et y trouver de riches pâturages. Ils arrivèrent à Moghân (*Mûqân*), bastion des Khurramiyya[46] à l'époque de Mu`taṣim[47]. Cet endroit fut mentionné, maintes fois, par les deux Ṭâ'î dans leurs poèmes[48]; (les gens de nos jours le prononcent: *Mûghân* [موغان], avec un *ghayn* au lieu d'un *qâf*).

Sur leur chemin, [les Tatars] avaient pénétré dans certaines régions du *Kurdj* [الكرج][49]. Dix mille combattants vinrent à leur rencontre. Mais les envahisseurs les défirent et tuèrent la plupart d'entre eux.

Les Tatars s'installèrent à Moghân. Les habitants de la Géorgie, quant à eux, entrèrent alors en contact, par correspondance, avec Azbak Ibn al-Bahlawân, afin d'engager une lutte commune [face aux occupants]. Ceux-ci firent de même avec Mûsâ Ibn Ayyûb, dit al-Ashraf, gouverneur du Khilât et de l'Arménie.

Pensant demeurer à Moghân jusqu'au printemps, à la fonte des neiges, les Tatars n'y parvinrent pas, car

---

46. Cf. *supra*, p. 20.
47. Al-Mu`taṣim bi-llâh, fils de Hârûn al-Rashîd, calife `abbasside, succéda à son frère al-Ma'mûn. Il régna de 218 H./796 J.C. jusqu'à sa mort en 227 H./841 J.C.
48. Les deux Ṭâ'î, deux grands poètes arabes, originaires de la tribu Ṭayy: Abû Tammâm Ḥabîb Ibn Aws al-Ṭâ'î (806-846 J.C.) et al-Buḥturî Abû 'Ubâda al-Ṭâ'î (821-897 J.C.).
49. Il s'agit de la Géorgie, l'un des pays de l'ex-Union soviétique, dont la capitale est Tbilissi, en arabe *Tiflîs* [تفليس].

considérable, qu'il avait collectée de la population, composée d'argent, d'effets et de chevaux. Ils leur demanda un sauf-conduit pour les habitants de la cité. Les Tatars leur accordèrent la vie sauve, sans les appréhender.

Ils repartirent ensuite pour Zendjân, qu'ils traitèrent à leur guise, puis Qazwîn. La population de cette ville se retrancha dans la citadelle. Mais les assaillants réussirent à y pénétrer de force. Les habitants combattirent avec acharnement, au couteau; car ils avaient l'habitude de ce genre de combat, depuis leurs guerres contre les Ismâ`iliens[45]. Les victimes furent innombrables parmi les citoyens de Qazwîn.

Les Tatars furent surpris par le froid intense et la neige abondante. Ils prirent la route pour Azerbaïdjan, pillant les villages, tuant tous ceux qui se présentaient à eux, incendiant et réduisant en ruines toutes les maisons qu'ils rencontraient, jusqu'à ce qu'ils soient arrivés à Tabrîz, où résidait Azbak Ibn al-Bahlawân Ibn Ayaldakar(?). Celui-ci ne vint pas à leur rencontre. L'idée même de se battre contre eux ne l'effleura point, occupé qu'il était, nuit et jour, par ses divertissements et ses orgies. Il leur dépêcha un émissaire leur proposant la paix, contre de l'argent,

---

45. Les Ismâ`îliens secte shî`ite extrémiste, devant son nom à Ismâ`îl b. Ja`far al-Ṣâdiq (m.762 J.C.), septième imâm du shî`isme.

Après avoir conquis cette ville, les Tatars la mirent à feu et à sang. Puis ils partirent vers Rayy. Sur la route, ils croisèrent la mère de Khwârizm-shâh et ses épouses, qui amenaient avec elles leurs munitions et leurs biens, dont un trésor d'une richesse inouïe. Elles se dirigeaient vers Rayy, cherchant refuge dans l'une de ses forteresses, les plus sûres. Les Tatars capturèrent les femmes et envoyèrent tout ce qu'elles avaient en leur possession à Gengis Khan, à Samarqand.

Ils se préparèrent ensuite pour lancer une offensive contre Rayy, car ils avaient entendu dire que Khwârizm-shâh s'y rendait et ils apportèrent crédit à ce bruit, tout comme la populace qui croit toute rumeur, vraie soit-elle ou fausse. Ils surprirent la population. L'armée de la ville n'eut pas le temps de réagir avant que les envahisseurs ne s'en soient rendus maîtres et ne l'aient pillée, enlevant femmes et enfants et leur faisant subir les pires traitements.

Ils ne s'arrêtèrent pas à Rayy. Ils poursuivirent leur chemin, en toute hâte, toujours à la recherche de Khwârizm-shâh. Ils saccagèrent au passage les villes et les villages. Ils massacrèrent les hommes et les femmes. Ils incendièrent et détruisirent les maisons. Bref, ils n'épargnèrent rien ni personne.

Ils se dirigèrent ensuite vers Hamadhân. Le gouverneur de la ville vint leur présenter une fortune

-"Je veux que tu me fasses embarquer sur la mer, sur le détroit de Kirmân", répliqua-t-il.

Le roi le fit accompagner par un groupe de ses esclaves à Kirmân qu'il quitta ensuite pour se rendre en Perse, où il mourut dans un petit village. Sa mort fut tenue secrète, de crainte que les Tatars ne viennent profaner sa tombe et s'emparer de sa dépouille.

En somme, son sort demeure obscur, confus et incertain. Après sa disparition, ses sujets attendirent son retour, au moins sept ans durant. Certains allèrent jusqu'à prétendre qu'il était encore vivant, mais caché. Or tout le monde est à présent convaincu de sa mort.

[SOUMISSION DU KHURÂSÂN]

Tchormagan, quant à lui, désespérant de jamais pouvoir capturer Khwârizm-shâh, revint de la côte au Mazendéran et en devint rapidement le souverain, en dépit de la résistance de ses fortifications, de son inaccessibilité et de ses citadelles imprenables depuis l'antiquité. Les Musulmans, eux-mêmes, lorsqu'ils firent la conquête du pays des Chosroès, de l'Iraq jusqu'au lointain Khurâsân, ne purent y accéder qu'au temps du calife Sulaymân Ibn `Abd al-Malik (44). Mazendéran demeura sous son propre contrôle, s'acquittant seulement d'un tribut.

---

44. Sulaymân b. `Abd al-Malik b. Marwân, calife omayyade, accéda au pouvoir à la suite de la mort de son frère al-Walîd. Son califat ne dura que deux ans et huit mois (69-99 H./714-17 J.C.).

qui ressemblent aux nègres. Ils portent des glaives très larges, différents des nôtres et ils mangent la chair humaine. Khwârizm-shâh en était obsédé et leur souvenir le hantait".

Burhân a ajouté: "Shams al-Dîn le fit monter dans une forteresse de l'Inde qui, inexpugnable, se trouvait à une altitude vertigineuse, si bien que les nuages ne la dépassent guère et la pluie tombe au-dessous.

-"Cette citadelle, lui dit le roi, est à toi; les provisions et munitions qu'elle contient, t'appartiennent. Restes-y dans la quiétude et la sécurité, jusqu'à ce que tu recouvres ta bonne fortune. Ainsi les rois passent toujours par des hauts et par des bas!".

-"Je ne pourrai pas résister dans cette forteresse et y demeurer; lui répondit Khwârizm-shâh, car les Tatars viendront ici, à ma recherche. D'ailleurs, s'ils veulent, ils empileront les selles de leurs chevaux, l'une sur l'autre, du pied de la citadelle jusqu'au sommet. Ils l'escaladeront ensuite et m'empoigneront".

-"Que désires-tu alors?!", lui demanda Iltutmish, en s'apercevant que son esprit était effectivement dérangé et que le Seigneur, exalté soit-il!, lui avait retiré Sa bienveillance.

="les peuples de forêt", dans l'extrême Nord et les Tatars noirs, dans le Nord, dont une partie, nous l'avons dit (p. 19, note 17), a émigré au Turkestan oriental pour fonder la dynastie de *Qara-Kitaï* (les Khitaï noirs). (Barthold, *Histoire des Turcs d'Asie centrale*: 118 et *E.I*[1].: IV, 736 *sq*).

mère de son fils, le sultan Jalâl al-Dîn Mankubirti[42]; celle-ci était en effet d'origine indienne et de famille royale.

On prétend que Khwârizm-shâh, en arrivant auprès du roi Iltutmish, avait l'esprit dérangé par la terreur que les Tatars lui avaient causée; ou était-ce, peut-être, la destinée que Dieu, le Tout-Puissant, lui avait réservée, pour une raison quelconque. Il délirait et voyait arriver les Tatars, matin et soir, à tout moment et à toute heure. Il disait: "Les voilà, les Tatars; ils sont sortis par cette porte! Ils ont pris d'assaut cet escalier". Et, livide, il proférait des menaces, en bégayant et en faisant des gestes incohérents.

Un savant khurâsânien, venu à Bagdad, connu sous le nom d'al-Burhân, m'a dit: "Mon frère, qui faisait partie de la suite de Khwârizm-shâh et qui bénéficiait de sa confiance et de ses faveurs, m'a raconté qu'après avoir perdu la raison, celui-ci clamait sans cesse des paroles telles: "*qarâ tatar kaldî!*" [قرا تتر كلدي], ce qui signifie: "les Tatars noirs sont arrivés". Il y a en effet des Tatars de peau noire[43],

---

42. Le futur Khwârizm-shâh Jalâl al-Dîn est mentionné dans le *Sharḥ*, à deux reprises différemment et, avec une fausse transcription: *Mankabûnî* [منكبوني] (VIII, 227) et *Munkabrî ou Mankubrî* [منكبري](VIII, 234); alors que son nom est *Mankubirtî* ou *Mangubirtî*. (Cf. Nesawî, *Sîrat Jalâl al-Dîn* : 43 & *passim*; Grousset, *L'Empire des Steppes*: 324 & *passim*).

43. Il y a effectivement trois groupes de Tatars: les Tatars blancs, vivant dans le sud de la Chine, les Tatars dits "Sauvages" ou, comme les appellent les Mongols =

Ce sont ces [mêmes troupes] qui s'emparèrent de l'Iraq persan et de l'Azerbaïdjan et s'établirent à Tabrîz, jusqu'à nos jours.

[FIN MYSTÉRIEUSE DE KHWÂRIZM-SHÂH]

Les avis divergent au sujet de Khwârizm-shâh. D'aucuns avancent qu'il se serait établit dans une citadelle inexpugnable, située sur une île de la mer de Tabaristan, où il serait mort[40]. D'autres prétendent qu'il aurait péri en mer. D'autres encore laissent entendre qu'après avoir survécu à un naufrage, il aurait rejoint, à la nage et dépouillé complètement de ses habits, un village du Tabaristan. Les habitants l'auraient reconnu et seraient venus lui rendre hommage, en baisant le sol devant lui. Ils auraient informé de sa présence leur gouverneur qui, lui rendant visite, lui aurait proposé ses services. Khwârizm-shâh aurait alors demandé à celui-ci de l'emmener par la mer en Inde. Il l'aurait conduit auprès de Shams al-Dîn Iltutmish[41], roi des Indes et frère de son épouse, la

---

40. Il semble, en effet, qu'il mourut d'épuisement sur un îlot de la Caspienne, en face d'Abeskûn, en décembre 1220 J.C. (Nesawî, *Sîra*: 104-108; Grousset, *L'Empire des Steppes*: 301).

41. Il est cité, dans le *Sharḥ Nahj al-balâgha*, sous le nom d'*Anlîmish* [أنليمش]; c'est une erreur, sans doute, de la part de l'auteur ou une mauvaise lecture de l'éditeur. Ibn al-Athîr (*Kâmil*: XII, 167) le nomme, à son tour, Iitimish. Mais il s'agit du Turc Iltutmish [التتمش], sultan de Delhi. (*E.I.*: III, 1183; Grousset, *L'Empire des Steppes*: 324).

ces barges. Les chevaux traînaient ainsi les hommes; et ceux-ci, à leur tour, tiraient les barges. D'emblée, il traversèrent tous ensemble le fleuve, à l'insu de Khwârizm-shâh, qui ne se rendit compte de leur venue qu'une fois passés sur la rive où il se trouvait lui-même. Prise de panique, son armée ne put tenir ses positions et se débanda dans tous les sens.

Khwârizm-shâh partit, accompagné de quelques-uns de sa suite, sans se soucier de rien. Il se dirigea vers Nîshâpûr. Lorsqu'il y rentra, un groupe de ses soldats vint se joindre à lui. A peine fut-il installé, que Tchormagan arriva; car il ne s'était pas attardé sur son chemin, en pillages ni en massacres. Il traversa plutôt les agglomérations à toute allure, à la recherche de Khwârizm-shâh, avant que celui-ci n'ait eu le temps de réunir une armée.

Dès qu'il eut connaissance de l'arrivée des Tatars, il fuit Nîshâpûr pour Mazendéran. Il y pénétra. Tchormagan, quant à lui, partit à ses pas. Sans s'arrêter à Nîshâpûr; il se dirigea vers Mazendéran que Khwârizm-shâh quitta aussitôt. Ainsi chaque fois qu'il laissait une région, les Tatars y arrivaient, jusqu'à ce qu'il ait atteint Tabaristan, où il s'embarqua sur des bateaux, en compagnie de ses amis. Lorsque les Tatars surent qu'il avait pris la mer, ils rebroussèrent chemin désappointés.

plus grand sérieux et de presser la marche. Après l'avoir salué, ce Mutkalî Nuwayra fit un détour. Il alla dans une yourte où habitait une femme qu'il aimait, pour lui faire ses adieux. Gengis Khan ayant appris ce fait, il le destitua du commandement de l'armée, sur-le-champ. Et il déclara: "Celui dont la détermination peut être pliée par une femme, ne convient nullement au commandement d'une armée!". Il le fit remplacer par Tchormagan.

L'armée se mit en route. Elle se dirigea de l'Amu-Daria [l'Oxus: *Jayḥûn*](39), vers une région, infranchissable, appelée *Banjâb* [بنجاب] (Pendjab), c'est-à-dire "les cinq eaux". N'ayant pas trouvé de bateaux, ils construisirent des sortes de grandes barges qu'ils tapissèrent de peaux de vaches. Ils y déposèrent leurs armes. Puis ils firent plonger leurs chevaux dans l'eau, en les tenant par la queue, après les avoir attachés à

---

des plus fidèles de première heure de Gengis Khan: Mukali Noyan. Le terme Noyan est un titre honorifique mongol, que les auteurs arabes traduisent généralement par Nuwayn; d'où vraisemblablement l'erreur de transcription d'Ibn Abî l-Ḥadîd [نويرة منكلي] (*Munqalî Nuwayra*).

On ignore, toutefois, si des liens de parenté existaient entre lui et Gengis Khan et si un quelconque conflit avait pu éclater entre les deux hommes. (Cf. *E.U.*: XI, 241, 243; Grousset, *L'Empire des Steppes*: 292 *sq.*).

39. De toute évidence, Ibn Abî l-Ḥadîd semble confondre l'Indus (*Mihrân*, en arabe), avec l'Amu-Daria (l'Oxus) qui, né en Afghanisan, baigne le Turkestan et l'Ouzbékistan et se déverse dans la mer d'Aral. Alors que la région du Pendjab est sillonnée par l'Indus, qui prend sa source du plateau tibétain, contourne l'Himalaya pour se jeter, par un immense delta, à la mer d'Oman, avant d'être grossi de la Kâbul, de la Gilgit et surtout de la Penjnad, avec ses cinq affluents (Tchenab, Ravu, Djelam, Satledj et Beas), d'où la remarque de l'auteur (les cinq eaux ou cinq rivières). (Cf. *E.I.*[1]: *sv. Mihrân*: III, 557 & *s.v. Pandjâb*: III, 1091).

[DÉROUTE DE L'ARMÉE DE KHWÂRIZM-SHÂH]

Installé dans sa première résidence, Kwhârizm-shâh envoyait, une fois au complet, toutes les armées qu'il pouvait constituer. Mais toutes revenaient, sans avoir pu atteindre la ville.

Gengis Khan, en revanche, une fois arrivé à ses fins à Samarqand, mit en marche vingt mille cavaliers, avec l'ordre de "rechercher Khwârizm-shâh où qu'il soit et de s'en emparer, même s'il était perché au ciel!".

Ce bataillon était appelé par les Tatars *al-Mugharriba* [المغرّبة], car il se dirigea vers l'Ouest du Khurâsân. Conduite par Tchormagan (*Jurmâghûn*)(37), beau-frère de Gengis Khan, cette armée pénétra en profondeur dans le pays.

On rapporte que Gengis Khan avait initialement nommé, à la tête de cette armée, un de ses cousins préférés, Mutkalî Nuwayra(38), lui recommandant le

---

37. Tchormagan, grand stratège de l'armée mongole et conquérant de l'Azerbaïdjan (1233 J.C.), de l'Arménie (1236 J.C.) et de la Géorgie (1239 J.C.). Mais d'après Nesawî, entre autres, il s'agit-là de deux grands autres chefs militaires qui ont dirigé toutes ces opérations: Jébé Noyan et Sübetey Bagadour.

Tchormagan, quant à lui, n'intervint qu'à partir de l'année 1231 J.C. et resta à la tête de l'armée mongole, en Perse, jusqu'à sa mort en 1241 J.C.

Notre Ibn Abî l-Ḥadîd aurait pu éviter une telle erreur historique, s'il avait eu entre les mains la *Sîrat Jalâl al-Dîn* de Nesawî (cf. *supra*: p. 14). (V. Nesawî, *Sîrat Jalâl al-Dîn*: 102 et 354; Juwaynî, *Ta'rîkh-i jahây*: II, 987*sq*; Barthold, *Turkistân*: 531; Grousset, *L'Empire des Steppes*: 301, 306-8; 326; *idem*, *L'Empire mongol*: 294 *sq*; *E.I.*: II, 44; *E.U.*: XI, 244 *sq*).

38. Nous n'avons trouvé aucune trace de cet homme, ni de cette information; à moins qu'il ne s'agisse d'une déformation -ce qui est fort probable- du nom d'un=

L'armée khwârizmite s'abstint de sortir à la rencontre [des envahisseurs]; ce sont les habitants qui sortirent en armes. Les Tatars les trompèrent, en effectuant une retraite. Mais ils leur avaient dressé des embuscades. Surpris, les résistants furent pris au piège par ceux qui étaient aux aguets. Puis les hordes tatares apparurent, par derrière, les encerclèrent et les exterminèrent, jusqu'au dernier.

Fortement affligés, les habitants demeurant à Samarqand furent en proie au désespoir. Quant aux soldats khwârizmites, ils imaginèrent qu'ils pourraient être épargnés, s'ils imploraient la protection des Tatars, vu leur appartenance commune à l'ethnie turque. Ils sortirent alors, avec leurs familles et toutes leurs richesses, demandant grâce aux Tatars. [Ceux-ci] saisirent leurs armes et leurs montures. Puis ils portèrent le glaive contre eux et les massacrèrent tous. Ils lancèrent ensuite un appel dans la ville: "La protection sera caduque pour qui se terre; celui qui sort sera sain et sauf!".

Tous les habitants sortirent. [Les envahisseurs] se mêlèrent à eux et les passèrent au fil de l'épée. Ils torturèrent les plus riches parmi eux et les dépouillèrent de leurs biens. Ils pénétrèrent ensuite dans Samarqand. Ils la ravagèrent et détruisirent ses maisons. Ceci advint en *muḥarram* de l'année 617 [mars 1220 J.C.].

tuer. Ils furent massacrés jusqu'au dernier. Il ordonna ensuite de piller la ville; rien, en conséquence, n'échappa au sac. Les femmes et les enfants furent capturés. [les Tatars] infligèrent à la population les pires tortures, en quête de leur argent.

Ils quittèrent enfin la ville, pour Samarqand, persuadés maintenant de l'impuissance totale de Kwhârizm-shâh face à leur entreprise. Ils emmenèrent avec eux les rescapés, parmi les habitants de Bukhârâ, en une affreuse cohorte de prisonniers traînés à pied. Tous ceux qui, épuisés, ne pouvaient plus marcher, furent achevés.

[CHUTE DE SAMARQAND]

Arrivés à proximité de Samarqand, les Tatars firent avancer les cavaliers, laissant les fantassins, les prisonniers et le matériel en retrait afin qu'ils les rejoignent, petit à petit, et terrifier ainsi la population. A la vue de cette marée humaine, les habitants de Samarqand furent épouvantés. Le lendemain, les prisonniers, les fantassins et le matériel arrivèrent. Chaque groupe de dix prisonniers avait un porte-drapeau, si bien que la population les crut, tous, des soldats prêts au combat.

[Les Tatars] encerclèrent Samarqand, dans laquelle se trouvaient cinquante mille soldats khwârizmites et un nombre incalculable de citoyens.

Ils se conduisirent, envers la population, correctement et avec équité. Gengis Khan entra, lui-même, à Bukhârâ. Il fit assiéger la citadelle. Et son héraut lança partout l'appel suivant: "Personne ne devra s'attarder! Tout défaillant sera mis à mort!".

Tous les habitants se présentèrent. Il leur ordonna de combler le fossé. Ce qu'ils firent, avec du bois, des fagots et de la terre. Puis ils prirent d'assaut la citadelle. Il y avait quatre cents soldats khwârizmites, qui prodiguèrent leurs efforts et défendirent la forteresse dix jours durant, jusqu'à ce que les sapeurs [mongols] atteignent les murailles. Les assaillants envahirent alors la citadelle et exterminèrent les soldats et tous ceux qui s'y trouvaient en leur compagnie.

Cette tâche accomplie, Gengis Khan ordonna de lui dresser une liste de tous les dignitaires et responsables de la ville. Une fois faite, elle lui fut présentée. Il demanda ensuite de lui faire venir [ces hommes]. Lorsqu'ils furent conduits devant lui, il leur dit: "Je veux que vous me restituiez les lingots que Khwârizm-shâh vous a vendus. Ils sont à moi; ils ont été extorqués à mes amis!". Tous ceux qui en détenaient, les apportèrent alors. Ceci fait, il leur intima de quitter la ville, d'eux-mêmes et de leur propre gré. Ils partirent démunis de toutes leurs richesses, chacun n'ayant plus pour toute fortune que les vêtements qu'il avait sur son corps. Puis il ordonna de les

[CHUTE DE BUKHÂRÂ]

Quant aux Tatars, après s'être préparés, ils se mirent en route pour la Transoxiane. Ils parvinrent à Bukhârâ, cinq mois après le départ de Khwârizm-shâh et en firent le siège. Ils harcelèrent la garnison qui la défendait, sans répit, trois jours durant. Mais les soldats khwârizmites ne purent résister plus longtemps. La nuit, ils ouvrirent les portes de la ville et la quittèrent, tous, pour regagner le Khurâsân. La population de Bukhârâ se retrouva sans défense aucune et perdit tout courage. Elle délégua le cadi de la ville(36) afin de demander la vie sauve pour les citoyens. Les Tatars accédèrent à sa demande.

Une unité militaire de Khwârizm-shâh resta cependant retranchée, principalement dans la citadelle. Lorsque les habitants de Bukhârâ virent que les Tatars leur accordaient la vie sauve, ils ouvrirent les portes de la ville, le 4 *dhû l-ḥijja* 616 [9 février 1219 J.C.]. Les Tatars entrèrent dans Bukhârâ et épargnèrent les habitants. Ils se contentèrent de leur dire: "Sortez-nous tout ce que Khwâriz-shâh détient chez vous, en fait de provisions ou de munitions. Aidez-nous à combattre ceux qui sont retranchés dans la citadelle et aucun mal ne vous sera fait!".

---

36. D'après Ibn al-Athîr, il s'agit de Badr al-Dîn Qâḍî-Khân (*Kâmil*: IX, 232).

La quatrième nuit, les deux armées se séparèrent, mais restèrent face à face. A la tombée de la nuit, les Tatars allumèrent des feux et les abandonnèrent ainsi. Puis, ils retournèrent auprès de leur roi Gengis Khan.

Quant aux Musulmans, ils partirent en compagnie de Muḥammad Khwârizm-shâh, et ne s'arrêtèrent qu'après avoir atteint Bukhârâ. Khwârizm-shâh réalisa alors qu'il ne pourrait vaincre Gengis Khan. Une partie [seulement] de son armée n'avait pu être tenue en respect par Khwârizm-shâh et tous ses soldats; qu'adviendrait-il si les Tatars, rassemblés autour de leur roi Gengis Khan, venaient tous jusqu'au dernier?!

Il se prépara à un éventuel siège et donna ordre à ses chefs militaires, à Samarqand, d'en faire autant. Il fit rassembler des munitions pour renforcer les fortifications. Il déploya vingt mille cavaliers pour la défense de Bukhârâ et cinquante mille pour celle de Samarqand. Il leur recommanda de protéger ces contrées, pendant qu'il se rendait, lui, au Khwârizm et au Khurâsân pour y lever des bataillons, mobiliser les Musulmans, recruter des combattants volontaires et revenir après.

Il partit ensuite pour le Khurâsân. Il traversa l'Amu-Daria [Oxus, *Jayḥûn* en arabe]; ceci se déroulait en 616 [1220 J.C.]. Il établit son campement près du lac de Balkhach et procéda à la mobilisation générale.

de nuit. Les pertes, en vies humaines, furent très lourdes des deux côtés, sans qu'il y ait eu toutefois ni vainqueur ni vaincu.

Les Musulmans tenaient bon pour défendre leur religion. Ils savaient que s'ils étaient vaincus, l'Islam serait anéanti. Et, de toute manière, ils seraient pris et capturés car, loin d'un pays où ils pourraient trouver refuge, ils ne sauraient s'échapper.

Les Tatars(34), de leur côté, luttèrent pied à pied pour sauvegarder leurs biens et leurs familles. Les combats s'intensifièrent, au point que certains descendaient de cheval et, à pied, ils se battaient contre leur adversaire, corps à corps et à coups de poignard. Il avait coulé, sur le sol, tellement de sang que les chevaux y glissaient.

Gengis Khan ne prit pas personnellement part à cette bataille; son fils *Qâ'ân*(35) y était. On a évalué le nombre des Musulmans tués à vingt mille. Le nombre des Tatars n'était pas connu.

---

34. On note ici qu'Ibn Abî l-Ḥadîd cite toujours les Tatars, avec une remarquable retenue, par leur nom ou en employant la 3e personne du pluriel, ils [هم] (*hum*); contrairement à Ibn al-Athîr ou, dans une moindre mesure, Nesawî qui ne les désignent que par "les impies" [الكفار] (*al-kuffâr*) ou "les maudits" [الملاعين](*al-malâ`în*). (Ibn al-Athîr, *Kâmil*, XII: 358, 361, 368 & *passim*; Nesawî, *Sîra*: 39, 40, 170 & *passim*).

35. Il s'agit du 3e fils de Gengis Khan Ögedey (1186-1241 J.C.), qui, après avoir succédé à son père, le 13 septembre 1229 J.C., porta le titre de *Qa'an* ou Qaghan (Grand-khân). (Rashîd al-Dîn, *Jâmi` al-tawârikh*:205 & *passim*; Pelliot/Hambis, *Histoire des campagnes*: 15 *sq*; Grousset, *L'Empire mongol*: 285-301).

marche contre toi; tu n'as nul besoin de venir à sa rencontre. Il te cherchera et te tuera, même si tu es au bout du monde. Et il réservera, à tes amis et à toi-même, le sort de ton envoyé!".

[PREMIER AFFRONTEMENT]

Khwârizm-shâh se prépara et se mit en route, tout de suite après le départ des messagers, prenant soin de les devancer afin de prendre les Tatars par surprise. Il parcourut, en un seul mois, une distance qui en exigeait quatre, et arriva devant leurs maisons et leurs yourtes. Il n'y aperçut que des femmes, des enfants et du barda. Il prit tous leurs biens et captura femmes et enfants.

Les Tatars, quant à eux, avaient quitté leurs demeures pour livrer bataille contre un roi turc, Kütchlüg (*Kushlûkhân*)[33]. Ils le combattirent, défirent son armée, pillèrent ses biens et revinrent. La nouvelle de ce que Khwârizm-shâh avait fait contre leurs familles leur parvint, sur le chemin du retour. Ils pressèrent la marche et le surprirent alors qu'il s'apprêtait à quitter leurs demeures, après avoir pris son butin. Ils engagèrent une bataille rangée, trois journées durant, sans le moindre répit, de jour comme

---

33. Kütchlug, fils du roi des Naiman, était un ennemi personnel de Gengis Khan. Il régna sur la dynastie de Qara-Khitaï de 1211 à 1218 J C. (Juwaynî, *Ta'rîkh-i*: I, 61-69; Jûzjânî, *Ṭabaqât-i*: II, 976 *sq*; Pelliot/Hambis, *Histoire des campagnes de Gengis Khan*: 298 *sq*; Barthold, *Turkistân*: 516-65; Grousset, *L'Empire des Steppes*: 293; *idem, Le Conquérant*: 251-55).

les rives du Syr-Daria (Iaxarte), ce grand fleuve qui sépare le pays des Turcs du Khwârizm. Ainsi tu seras là-bas, sur place. Lorsque l'ennemi arrivera, après de longues marches, nous l'affronterons reposés et au complet. En revanche, ses forces seront épuisées et atteintes par la fatigue et la faiblesse".

Khwârizm-shâh réunit ses généraux et ses conseillers pour les consulter. Ils lui dirent: " Il faut plutôt les laisser franchir le Syr-Daria. Ils devront traverser ces montagnes et ces cols. Ils en ignorent les voies d'accès que nous, en revanche, connaissons parfaitement. Nous les surprendrons alors et les exterminerons jusqu'au dernier".

Ils en étaient à ce point de leurs délibérations, lorsqu'un messager de Gengis Khan arriva, accompagné de plusieurs hommes, et [au nom du chef mongol], il menaça Khwârizm-shâh en ces termes: " Tu tues mes amis et mes commerçants et tu extorques de leurs mains mon bien. Prépare-toi à la guerre. Je marche contre toi, à la tête d'une armée contre laquelle tu ne pourras rien!".

L'émissaire ayant délivré ce message, Khwârizm-shâh ordonna de l'exécuter. Ce qui fut fait. Ensuite, il fit raser la barbe des soldats qui l'accompagnaient et les renvoya auprès de leur maître, Gengis Khan, afin de l'informer de ce qu'il avait fait de son messager et de lui dire: "Khwârizm-shâh te fait savoir qu'il se met en

les charognes, les chiens et les sangliers. Ils étaient les créatures les plus endurantes à la faim, à la soif et la misère. Leurs vêtements étaient des plus rudes au toucher. Certains parmi eux, revêtus de peaux de chien ou d'autres animaux, ressemblaient à des fauves ou à des bêtes sauvages.

Tous ces renseignements furent transmis à Kwhârizm-shâh, qui regretta d'avoir exécuté les leurs et d'avoir brisé le rideau qui les séparait en extorquant leur bien. Il fut en proie aux remords et à une intense inquiétude. Il convoqua le juriste al-Shihâb al-Khayûqî[32], un homme qu'il tenait en grande estime et dont il respectait toujours les avis.

-"Un événement d'une grande gravité vient de se produire, lui confia-t-il. Nous devons y réfléchir absolument et déterminer une conduite à suivre". Et de continuer: "Un ennemi turc, dont les effectifs sont innombrables, s'est mis en mouvement vers nous".

-"Mais tes armées sont aussi nombreuses, répondit alors [Shihâb]. Tu peux écrire aux provinces afin de rassembler les soldats et procéder à la mobilisation générale. Tous les Musulmans sont dans le devoir de t'apporter leur aide, en argent et en hommes. Tu iras, ensuite, avec toute cette armée sur

---

32. Dans le *Sharḥ* d'Ibn Abî l-Ḥadîd: *al-Khayûfî*; mais, comme le note l'éditeur de la *Sîrat Jalâl al-Dîn* de Nesawî, il faut le lire plutôt: al-Khayûqî, relatif à la ville de Khayûq, dans le Khwârizm. (*Sîrat Jalâl al-Dîn*: 109, note 1; cf. Barthold, *Turkistân*: 577).

envoyé un groupe de marchands tatars, à Samarqand, chargés d'argent[31] pour acheter des vêtements d'apparat et des habits, entre autres choses, pour lui-même et pour sa famille et ses proches.

Khwârizm-shâh donna l'ordre à son gouverneur de faire tuer ces commerçants, de prendre l'argent et de le lui envoyer. Ce qu'il fit. Khwârizm-shâh distribua ces grandes quantités d'argent aux commerçants de Samarqand et de Bukhârâ et il en prit pour lui, la contre-valeur [en monnaie]. Puis il se ravisa. Il dépêcha alors un émissaire à son gouverneur d'Otrar, lui ordonnant d'envoyer des espions chez les Tatars, pour l'informer de leurs préparatifs guerriers.

Les espions partirent, franchissant de nombreux déserts et des chaînes montagneuses. Il revinrent [auprès du gouverneur], après certain temps. Il l'informèrent des effectifs de l'armée tatare, qui était innombrable et constituée d'hommes parmi les plus durs au combat, ne fuyant devant rien et fabriquant de leurs propres mains les armes dont ils avaient besoin. Leurs chevaux n'avaient pas besoin d'orge, pour se nourrir, car ils mangeaient les plantes sauvages et les racines des pâturages. [Les hommes], eux, mangeaient

---

31. L'argent: le métal et non la monnaie. Mais Nesawî, entre autres, précise qu'il s'agissait d'une caravane marchande de quelque cinq cents chameaux, chargés, non seulement d'argent mais aussi d'or, de soie chinoise, de vêtements luxueux et de fourrure. Et à sa tête, il y avait quatre musulmans: 'Umar Khawâja al-Utrârî, al-Ḥammâl al-Marâghî, Fakhr al-Dîn al-Bukhârî et Amîn al-Dîn al-Ḥarûsî. (Cf. Nesawî, *Sîrat Jalâl al-Dîn*: 85; Barthold, *Turkistân*: 568 *sq*).

séparât. Cependant une paix, ou plutôt une trêve, s'établit entre les deux hommes; mais c'était un armistice précaire, reposant "sur une poudrière" [هدنة على دخن] (*hudna `alâ dakhan*).

[DÉFI DE KHWÂRIZM-SHÂH A GENGIS KHAN]

Cette situation se maintint quelque temps, mais elle fut détériorée, à la suite des nouvelles parvenues à Khwarizm-shâh et rapportées par des voyageurs et commerçants, faisant état de l'intention de Gengis Khan de conquérir Samarqand et au-delà, ainsi que de ses préparatifs et de la mobilisation de ses forces qui battaient leur plein.

Au lieu de le ménager -ce qui aurait été plus sage- Khwârizm-shâh prit l'initiative de couper la route des caravanes qui se dirigeaient vers les pays tatars. Les vivres, les denrées et des effets, en provenance de la Transoxiane et destinés au Turkestan, frappé par le blocus, faisaient gravement défaut aux Tatars.

Les choses en seraient restées là, s'il s'était contenté de cette mesure. Mais son gouverneur de la ville d'Otrar[30], située à l'extrémité de la province de Transoxiane, lui fit savoir que Gengis Khan avait

---

30. L'auteur l'écrit faussement: *Utrân* [أترار] . Le gouverneur d'Otrâr, en question, était Inaltchuq Yanâl-Khân, cousin maternel de Khwârizm-shâh. (cf. Nesawî, *Sîrat Jalâl al-Dîn*: 58; Juwaynî, *Ta'rîk-i djahân-gushây*: I, 81; Jûzdjânî, *Ṭabaqât-i Nâṣirî*: II, 1104; Barthold, *Turkistân:* 568; D'Ohsson, *Histoire des Mongols*: I, 204; Grousset, *L'Empire des Steppes*: 298).

[GENGIS KHAN, CHEF HÉRÉDITAIRE DES TATARS]

Puis l'idée de se lancer à la conquête du Turkestan se fit jour, dans l'esprit du célèbre Gengis Khan [جنكزخان]. Certains prononcent: "*Jenkirkhân*" [جنكرخان]; mais des personnes au fait du peuple tatar m'ont indiqué qu'il fallait plutôt le prononcer: "*Jenkiz*" [جنكز] avec un *zây* [z], muni de point diacritique.

Gengis Khan était le chef héréditaire des Tatars des régions les plus éloignées de l'Orient. Cette contrée est encore, de nos jours, gouvernée par des hommes appartenant à son lignage. C'était un chef courageux, intelligent et ne rencontrant que la victoire dans les guerres qu'il menait.

Il eut cette idée lorsqu'il se rendit compte qu'une peuplade tatare, qui n'avait pas de roi, -chaque tribu étant dirigée par son propre chef- avait pris possession du Turkestan, en dépit de ses vastes territoires.

Rongé par la jalousie et assoiffé de pouvoir, il voulait régner sur ce pays. Il leva une armée et vint des fins fonds de la Chine, jusqu'aux frontières du Turkestan. Les Tatars, qui s'en étaient déjà emparés, voulant l'empêcher de pénétrer dans le pays, résistèrent. Mais ils furent submergés, vaincus et, pour beaucoup, massacrés.

Gengis khan assit alors son règne sur la totalité du Turkestan. Il devint ainsi, en quelque sorte, le voisin de Khwârizm-shâh quoiqu'une grande distance les

Kitat représentaient, pour lui, une protection, un bouclier contre les autres [les Tatars].

En effet, après avoir exterminé ces souverains, il devint directement responsable [de leur peuple], en guerre comme en paix. Ses généraux et ses émirs commirent des vexations à leur encontre, au Turkestan, coupant ainsi [aux Tatars] les voies de commerce.

[CONQUÊTE DU TURKESTAN PAR LES TATARS]

Une armée composée de vingt mille hommes, environ, soudés et solidaires, fut mise sur pied, avec un chef pour chaque tribu. Elle lança une attaque contre le Turkestan, défiant les généraux et les gouverneurs de Khwârizm-shâh et s'empara du pays. Les survivants, échappés à l'épée des Tatars, se replièrent au Khwârizm.

Le shâh encaissa cette défaite. Il comprit que l'immensité de son royaume lui interdisait d'affronter directement les Tatars. Il leur abandonna alors le Turkestan. Un statu quo s'établit, selon lequel le Turkestan demeurait à eux, et le reste de la Transoxiane, Samarqand, Bukhârâ, entre autres régions, appartenait à Khwârizm-shâh. Cette situation resta en l'état, durant quatre ans environ.

prononcent aujourd'hui: *Tatâr* [تاتار], avec un *alif* long[26].

Ce peuple vivant en Extrême-Orient, dans les montagnes de Tamghâj[27], aux frontières de la Chine, était séparé par plus de six mois de marche de la Transoxiane musulmane.

[CONQUÊTE DE LA TRANSOXIANE PAR LE SULTAN KHWÂRIZM-SHÂH]

Le sultan Khwârizm-shâh, Muḥammad Ibn Takash avait conquis la Transoxiane, après avoir vaincu et tué ses souverains Khiṭaï qui résidaient à Bukhârâ, à Samarqand et au Turkestan, comme Kashgar (*al-Kasghar*) [28] et *Balâssâghûn* [29].

Ces souverains étaient un objet de revanche entre le shâh et cette nation Kitat. C'est pourquoi il remplit ces pays de ses généraux et de ses soldats. Mais ce faisant, il commit une erreur fatale, car les souverains

---

26. Comme Mas`ûdî, Ibn al-Athîr emploie ce terme sans *alif* [تتر] (*tatar*), alors que Nesawî y ajoute deux *alif* [تاتار](*tâtâr*). (Cf. Ibn al-Athîr, *Kâmil*: XII, 358 & *passim*; Nesawî, *Sîrat al-sultân Jalâl al-Dîn*: 38, 48, 82 & *passim*).
27. Tamghâj: une ville chinoise, d'après Barthold, ou une région dans le Turkestan, selon Raverty. (Cf. Barthold, *Turkistân*: 567 *sq*; Raverty, *Ṭabaqât-i Nâsirî*: II, 952 aussi: pp. 956 *sq* & 960 *sq*).
28. Kashgar ou Kashgarie: région du Turkestan oriental, peuplée de Turcs mongolisés. (Grousset, *L'Empire des Steppes*: 199-203, 293 & *passim*; Perroy, *Le Moyen Age*: 317 & *passim*).
29. *Balâssâghûn*: était la capitale des Qara-Khitaï, située sur le Tchou à l'Ouest de l'Issiq-koul, dans l'actuelle Kirghizie. (Barthold, *Histoire des Turcs*: 64 *sq*; Grousset, *L'Empire des Steppes*: 220, 293 & *passim*; Nesawî, *Sîrat Jalâl al-Dîn*: 421; Barthold/boyle, *Balâsaghûn, E.I.*: 1017 *sq*).

différentes nations, nous n'avons trouvé aucune allusion à celle des Tatars. Cependant nous avons vu mentionnés divers peuples turcs: Les Qiptchâq, les Yämäk (*al-Yamak*)[20], les Barulas (*al-Barlû*)[21], les *Tafrîh*[22], les *Yatbah*[23], les Russes (*al-Rûs*), les Khita, les Kirghiz (*al-Qirghiz*)[24], les Turcomans (*al-Turkumân*), etc...

Un seul ouvrage fait état de ce peuple: *Murûj al-dhahab* (les Prairies d'or) de Mas`ûdî. Il les mentionne sous le vocable: *Tatar* [تتر][25], alors que les gens le

---

20. Les Yämäk, Yemäk ou Yemek, l'une des tribus turques Cencalis, qui peuplaient le Khwârizm du Nord, plus précisément, la région nord-est de la Caspienne. (Nesawî, *Sîrat Jalâl al-Dîn*: 71, 99, 122; D'Ohsson, *Histoire des Mongols*: I,196; Pelliot/Hambis, *Histoire des campagnes de Gengis Khan*: 89, 95, 96, 107; Barthold, *Histoire des Turcs*: 89).

21. Les Barulas: tribu turque de l'ethnie baralatai. (Belliot/Hambis, *Histoire des campagnes de Gengis Khan*: 25, 33, 34, 59, 60; Barthold, *Turkistân*: 661; Grousset, *L'Empire mongol*: 23).

22. Les *Tafrîh*: malheureusement, nous n'avons pas réussi à dévoiler l'origine de cette tribu. Il se pourrait que ce soit une déformation et qu'il s'agisse probablement des habitants de Tourfan, région de Turcs ouigour, située au Nord du Tarim. (Cf. Grousset, *L'Empire des Steppes*: 219-20).

23. Les *Yatbah*: il s'agit vraisemblablement des Topa ou Tobbat, qui, d'après Blochet, ont donné leur nom au Tibet. (Blochet, *Introduction à l'Histoire des Mongols*: 201, note 7; cf. Grousset, *L'Empire des Steppes*: 103).

24. Les Kirghiz: peuple turc fortement mongolisé; occupant la Khirghizie ou le Kirghistan, en Asie centrale. (Pelliot/Hambis, *Histoire des campagnes de Gengis Khan*: I, 13, 14, 70, 80 & *passim*; Grousset, *L'Empire des mongols*: 196 *sq* & *passim*; Perroy, *Le Moyen Age*: 202 & *passim*; Barthold/Hazai, *Kirghiz, E.I.*: V, 137 *sq*).

25. Cf. Mas`ûdî, *Murûj*: 1, 235. A noter que notre Professeur regretté, Ch. Pellat, dans sa récente édition de ce livre, a fixé ce mot: [ببر] *(babar)* et, en note: [تبر] *(tabar)*. Il faudrait, à la lumière de cette remarque d'Ibn Abî l-Ḥadîd, relire le mot plutôt: [تتر] *(tatar)*.

Transoxiane, le Khurâsân et les pays contigus, avec une atrocité inouïe, dont l'histoire n'avait jamais vu de pareille, depuis la création d'Adam par le Seigneur, jusqu'à nos jours.

En effet, même le fléau que représentait Bâbak al-Khurramî(19), durant vingt ans environ, ne frappa que la seule région d'Azerbaïdjan. Alors que ceux-ci bouleversèrent tout l'Orient. Leur férocité s'étendit jusqu'à l'Arménie et la Syrie; et leurs hordes parvinrent en Iraq.

Même Nabuchodonosor, qui avait massacré les Juifs, n'avait détruit que Jérusalem et décimé les fils d'Israël, qui se trouvaient en Palestine. Rien de comparable entre le nombre des tués juifs de Jérusalem et ceux des habitants des pays et des métropoles, musulmans ou non, que les Tatars exterminèrent et sur les cadavres desquels ils amoncelèrent les ruines.

Nous allons présenter ici un aperçu de leur histoire [les Tatars] et de leur première apparition, d'une manière lapidaire; et nous disons:

En dépit de notre grande fréquentation des ouvrages historiques, des livres décrivant les

---

19. Bâbak b. Muṭahhar al-Khurramî fut le chef de l'école persane dualiste *al-Khurramiyya*, au IX^{e} siècle. Il dirigea une rebellion contre le califat `abbâsside, dans la région du Badhdh, en Azerbaïdjan, durant vingt-deux ans (201-23 H./816-38 J.C.). Et c'est à cela que l'auteur fait allusion. (Cf. W. Madelung, *E.I.*, III, 65 *sq.*).

[LES TATARS ET LEURS ORIGINES] (15)

Sache que cette divination annoncée par [`Alî] - que la paix soit sur lui]- nous l'avons vue de nos propres yeux. Les faits se sont produits de notre vivant. Les gens attendaient ces événements depuis le début de l'Islam; et voilà que l'arrêt divin et le destin les faisaient dérouler à notre époque.

Il s'agit des Tatars(16) qui émergèrent du fin fond de l'Orient, dont les chevaux atteignirent l'Iraq et la Syrie, et qui traitèrent les rois des Khitaï (*al-Khaṭâ*)(17) et des Qiptchâq (*al-Qifjâq*)(18), ainsi que la

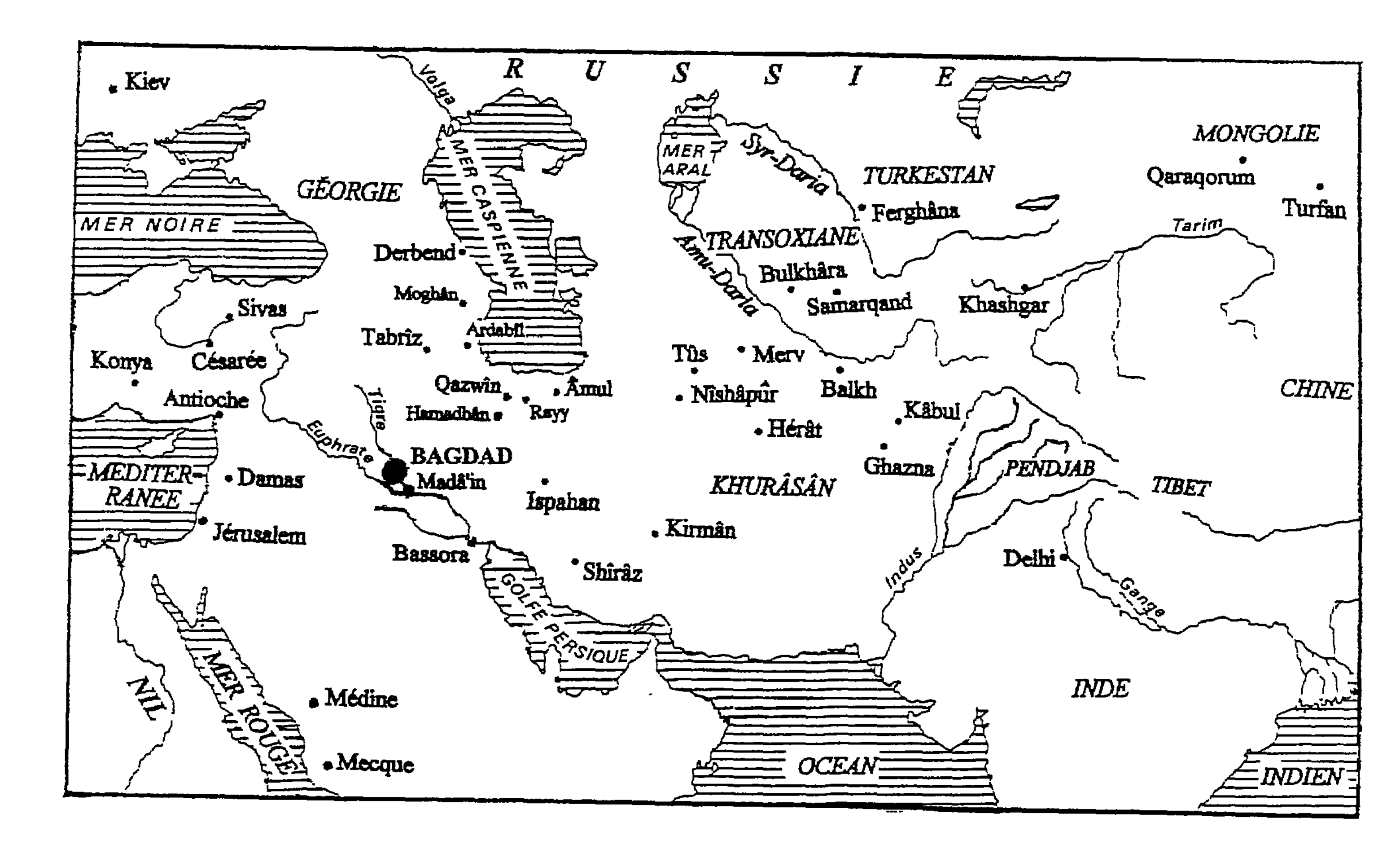
---

15. A noter que le texte d'I.A.Ḥ., comme la plupart des textes arabes classiques, ne contient que le titre principal du chapitre. Nous étions donc amené à ajouter titres et sous-titres. Et, pour les distinguer du texte original, nous les avons placés entre deux crochets.

16. Comme la plupart des Médiévaux, Arabes, Chinois et Européens, Ibn Abî l-Ḥadîd désigne par les "Tatars", tribu turco-mongole parmi tant d'autres, l'ensemble des mongols. (Cf. Barthold, *Tatâr*, *E.I.*: IV, 736 *sq*, Armengaud, *Mongolie*, *E.U.*: XI, 239).

17. Les Khitaï, Khitan ou Kitat: tribus turco-mongoles établies, depuis le Vième siècle, dans le Nord de la Chine. Une partie d'entre eux émigra dans la région du lac Balkhash, dans le Turkestan oriental, pour fonder la dynastie Qara-Khitaï (Khitaï noirs). (Cf. Barthold, *Turkistân*: 472-543; *idem*, *Tatâr*, *E.I.*: IV, 736-7; Grousset, *L'Empire des Steppes*: 180-94, 219-25 & *passim*; *idem*, *L'Empire mongol*: 15-20 & passim; Bosworth, *Kara-Khitây*, *E.I.*: IV, 604-5; Perroy, *Le Moyen Age*: 315 & *passim*; *E.U.*: *Mongolie*, XI, 239-61; & *Turcs*, XVI, 421-24; *Le Grand Robert des noms propres*: III, 1692; Kasimirski, *Dictionnaire*: I, 752; Rashîd al-Dîn, *Jâmi` al-tawârîkh*: 110 *sqq* & *passim*).

18. Les Qiptchâq ou, en russe, Polovtsi: confédération de tribus turques mongolisées, vivant dans la steppe russe jusqu'à l'avènement de Gengis Khan où son petit-fils, Batu, en a fait le Khanat de Qiptchâq ou la Horde d'Or. (Barthold, *Turkistân*: 529 *sq*; *idem*, *Histoire des Turcs*: 88-92; Grousset, *L'Empire des Steppes*: 238-42 & *passim*; Hazai, *Kipcâq*, *E.I.*: V. 128 *sq*; Armengaud, *L'Epoque gengiskhanide*, *E.U.*: XI, 246; Zambaur, *Manuel de généalogie:* 230 *sq*; Perroy, *Le Moyen Age*: 321 & *passim*).


RUSSIE
Kiev
Volga
MER CASPIENNE
MER ARAL
Syr-Daria
TURKESTAN
MONGOLIE
Qaraqorum
Turfan
MER NOIRE
GÉORGIE
Ferghâna
TRANSOXIANE
Amu-Daria
Tarim
Derbend
Bulkhâra
Samarqand
Khashgar
Moghân
Sivas
Tabrîz
Ardabîl
Konya
Césarée
Tûs
Merv
Qazwîn
Âmul
Nîshâpûr
Balkh
CHINE
Antioche
Tigre
Hamadhân
Rayy
Kâbul
Euphrate
Hérât
BAGDAD
Madâ'in
Ghazna
MEDITER-RANEE
Damas
PENDJAB
TIBET
Ispahan
KHURÂSÂN
Jérusalem
Kirmân
Bassora
Indus
Delhi
Shîrâz
GOLFE PERSIQUE
Gange
NIL
MER ROUGE
Médine
INDE
Mecque
OCEAN
INDIEN

CHAPITRE
SUR LES TATARS & LEUR CHEF GENGIS KHAN

silence le Kâmil, s'il s'en était servi, alors qu'il le cite expressément maintes fois ailleurs?![14]. Est-ce un oubli involontaire -ce qui est invraisemblable- ou volontaire pour se garder la primauté de la matière?! Ce qui serait surprenant de sa part, car ceci n'est nullement dans ses habitudes!

Une autre hypothèse, qui semble plus plausible, pourrait expliquer ce mutisme: cette similitude entre les deux récits ne serait-elle pas due tout simplement à ce que les deux auteurs ont eu recours aux mêmes sources, à savoir, des sources oculaires et orales, voyageurs et commerçants, entre autres? Après tout, Ibn al-Athîr lui-même tait ses sources écrites!

Boulogne, le 19 décembre 1994

Moktar DJEBLI

---

14. Cf. *Sharḥ*: II, 21 *sqq*; VI, 273-75; VII, 75 & *passim*.

qu'un souci majeur: tracer la biographie de Jalâl al-Dîn Khwârizm-shâh; les Mongols n'étant abordés que fortuitement.

Il reste le Kâmil d'Ibn al-Athîr. Sans doute, le commentateur du Nahj a dû mettre à profit une foule de renseignements concernant les Mongols, que contient cet ouvrage, du moins pour la période des années 617-628 H./1220-1230 J.C., vu la ressemblance évidente, non seulement dans le contenu mais parfois aussi dans la forme; quoique le texte du Sharḥ soit plus cohérent et mieux structuré.

Ibn Abî l-Ḥadîd, néanmoins, fournit des précisions que nous n'avons trouvées nulle part ailleurs: les tribus qu'il mentionne, notamment les Yatbah (To-pa?), les Tafrîh(?)[10]*, les Yämäk, ainsi que la ville de Qaraqorum*[11] *ou le conflit qui éclata parmi les habitants d'Ispahan, entre Ḥanafites et Shâfi'ites et qui fit de la ville, après une résistance héroïque, une proie facile pour les Mongols* [12]*, etc.*

Aussi, au sujet de la disparition de Md. Khwârizm-shâh, l'auteur en donne trois versions, toutes différentes de celle d'Ibn al-Athîr [13] *.*

Une autre question, non moins pertinente, peut se poser encore: pourquoi l'auteur passe-t-il ici sous

---

10. Cf. *infra*: p. 21

11. *Ibid*: p. 61

12. *Infra*: p. 61 *sq.*

13. *Sharḥ*:, VII, 227-29; cf. Ibn al-Athîr, *Kâmil*: XII, 370 & *infra.*: p. 39.

dans sa chronique tatare, que nous présentons au lecteur?

A notre connaissance, quatre autres auteurs contemporains ont également abordé ce sujet.

1- Dans son Kâmil fî l-ta'rîkh , achevé en 629 H/1231 J.C, l'historien Ibn al-Athîr a consacré plusieurs passages aux "Tatars". Il fournit, sans trop insister -certes- sur leurs origines, des renseignements qui recoupent ceux de notre auteur [8]*,*

2- Nesawî, qui a composé sa Sîrat Jalâl al-Dîn en 639 H./1241 J.C.;

3- Juwaynî, qui a écrit son Ta'rîkh-i djahân-gushây, entre les années 650 et 658 H./1252-60 J.C.;

4- Et enfin Jûzjânî, qui a achevé ses Ṭabaqât-i Nâṣirî, en 657-58 H./1258-59 J.C.

Ces deux derniers sont à exclure d'emblée; leur ouvrage étant plus tardif que le Sharḥ Nahj al-balâgha qui, entamé en 644 H./1246 J.C., a été achevé en 649 H./1251 J.C [9]*.*

Nous pensons que la Sîrat Jalâl al-Dîn de Nesawî est à écarter également. Notre auteur -selon toute apparence- ne l'avait pas consultée. Les faits relatés, par l'un et l'autre, sont tout à fait différents; tout comme leur objectif d'ailleurs: l'un était préoccupé par l'invasion mongole en terre d'Islam, et l'autre n'avait

---

8. Cf. *Kâmil*, XII, 358-99, 401-4, 406-11, 419-20, 425-36, 470-89, 595-602.

9. Cf. I.A.Ḥ., *Sharḥ*: XX, 349.

En homme de foi, et répondant à ses convictions mu`tazilites de tendance bagdadienne, pro-alide[6], notre auteur n'écarte donc pas le fait que "l'Imâm `Alî, légataire du Prophète" -d'après les Shî`ites-, ne soit doué de don prophétique; une sorte de clairvoyance et de perspicacité pénétrante lui permettant de dévoiler certains événements futurs.

Pour lui donc, ces peuplades, si bien décrites par `Alî, qui surgirent des fins fonds de l'Asie et qui semèrent la terreur par où elles passèrent, sans que rien ne puisse arrêter leur marche, ressemblaient fort bien à ce que l'histoire connaîtra plus tard sous le nom des Mongols.

SOURCES D'IBN ABÎ L-ḤADÎD

Si les renseignements fournis au cours de ce récit, semblent être, en grande partie, de première main -car il s'agit d'événements vécus par l'auteur et relatés à chaud, d'où l'intérêt capital de ce texte- une question légitime, cependant, ne manque pas de surgir.

En effet, en dehors des quelques informations recueillies, grâce à ses contacts personnels avec des commerçants ou voyageurs, tel le savant khurâsânien al-Burhân[7], quelles étaient les sources de l'auteur

---

6. V. à ce sujet, Djebli, *Tendance politico-religieuse d'I.A.Ḥ.*, (à paraître prochainement dans *Arabica*).
7. Cf. *infra*: p. 40.

Ce sont les cinq choses énumérées dans le verset précité: "Auprès d'Allâh est la science de l'Heure....";

2- Les autres sont connus par certains êtres humains, grâce à l'information que Dieu leur transmet. Il s'agit donc d'événements autres que les cinq précédents. Les prédictions [de `Alî] au sujet de l'invasion des peuples turcs en sont une illustration....."

Et de continuer: "Si tu t'interroges sur le point suivant, parmi les cinq mystères connus par Dieu seul: l'homme ne sait point ce qui lui arrivera demain; il est vrai que Dieu, le Très-Haut, a pu informer Son Prophète de choses qu'il devait accomplir plus tard; comme, à titre d'exemple, lorsqu'il lui annonçait: "Tu conquerras La Mecque". De même, le Prophète a informé son légataire (al-waṣiyy) [`Alî] -que la paix soit sur lui!- au sujet de ce qu'il accomplirait ultérieurement, en lui déclarant par exemple: Tu combattras, après moi, les renégats [الناكثون] *(al-nâkithûn)....".*

"Ma réponse, conclut-il, est que: ce verset signifie qu'aucune âme ne connaît, par avance, ce qu'elle deviendra dans l'avenir; ce qui n'empêcherait pas l'homme de connaître, ne serait-ce qu'en partie, ce que le futur lui réserve".

'Alî se mit à rire et répondit: "O frère de Kalb![4] Il ne s'agit pas de prophétie; mais d'un enseignement reçu de Celui qui sait. Connaître l'inconnu serait connaître l'Heure dernière et les événements que Dieu -exalté soit-Il- a énumérés dans le verset coranique: "auprès d'Allâh est la science de l'Heure. Il fait descendre l'ondée. Il sait ce qui est dans les entrailles des mères alors que nulle âme ne sait ce qu'elle gagnera demain et que nulle âme ne sait en quelle terre mourra. Allâh est omniscient, très informé"[5]. En effet, Dieu seul sait ce qui se trouve dans les entrailles: est-ce un garçon ou une fille, laid ou beau, généreux ou pingre, malheureux ou heureux? Dieu sait qui alimentera le feu de l'Enfer ou tiendra compagnie aux Prophètes, au Paradis.

Voilà quels sont les mystères que, seul, Dieu connaît. Les autres sont des événements enseignés par Le Seigneur à Son Prophète -que la prière divine soit sur lui!- qu'il m'a enseignés, à son tour; et il a prié afin que mon cœur les comprenne et que mon corps les contienne".

Faisant suite à ce passage, Ibn Abî l-Ḥadîd écrit: "'Alî, que la paix soit sur lui!, voulait dire: Les événements futurs sont de deux ordres:

1- Les uns sont connus de Dieu, le Très-Haut, et de Lui seul. Il n'en informe aucune de Ses créatures.

---

4. Kalb : une tribu arabe ancienne.
5. *Coran*: XXXI, 34.

En effet l'un des sujets historiques les plus passionnants qu'aborde notre auteur est celui des Mongols.

Dans ce long récit, il nous fait revivre les invasions mongoles, offrant une remarquable description des hordes tatares et de la terreur et des malheurs qu'elles semèrent, depuis leur premier assaut contre l'Orient musulman en 616 H./1219 J.C., jusqu'à leur apparition aux portes de la capitale abbâsside en 643 H./1245 J.C.

Fidèle à sa méthode, dans son commentaire, et après avoir élucidé quelques vocables obscurs du prône 124 du Nahj al-balâgha[3], du point de vue grammatical, linguistique et philologique, l'auteur s'attaque d'emblée à une analyse approfondie du passage que voici:

[Dans ce discours, `Alî déclare]: "Il me semble voir des gens, un peuple, dont les visages ressemblent à des boucliers martelés. Ils sont vêtus de tuniques de soie blanche et de brocart. Ils passent, tour à tour, d'un cheval de race à l'autre. Ils tuent sans retenue, si bien que les blessés marchent sur les tués; et les fugitifs sont moins nombreux que les captifs".

L'un de ses compagnons lui dit alors: "O Commandeur des Croyants! Tu viens de nous divulguer une prophétie!".

---

3. Cf. I.A.Ḥ., *Sharḥ*: VIII, 215-43; & *Nahj*: I, 13-15.

L'AUTEUR

Ibn Abî l-Ḥadîd, `Izz al-Dîn `Abd al-Ḥamîd al-Madâ'inî[1], *naquit à Madâ'in, anciennement Ctésiphon, le 1er dû l-ḥijja 586 H./30 décembre 1190 J.C. Il mourut vers la fin de jumâdâ II 656 H./juin 1258 J.C., à Bagdad, sa ville adoptive, peu après son occupation par les Mongols.*

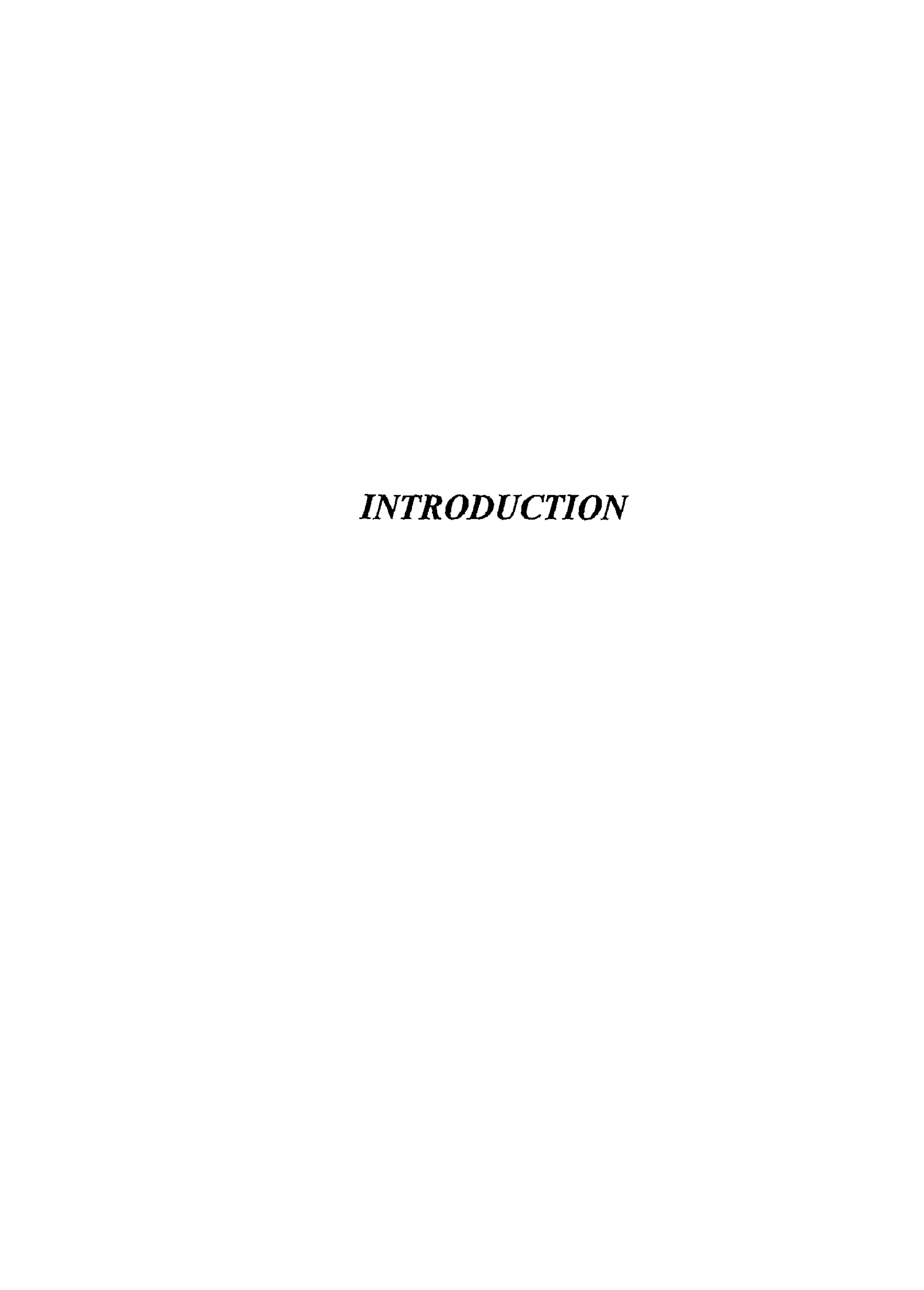
Savant d'une immense érudition, poète et écrivain, il composa de nombreux ouvrages, dont le plus important est son monumental Sharḥ Nahj al-balâgha, commentaire d'une anthologie de discours socio-polico-religieux, attribués traditionnellement au Calife `Alî b. Abî Ṭâlib, cousin et gendre du Prophète (m. 40 H./661 J.C.)[2].

Témoin de son vaste savoir, son Sharḥ Nahj al-balâgha, avec ses vingt volumes, est une véritable œuvre encyclopédique, abordant les sujets les plus variés et couvrant mille et un aspects de la culture arabo-islamique médiévale. L'extrait, que nous présentons ici, en est un exemple éloquent.

---

1. Au sujet d'I.A.Ḥ., v. en particulier: L. V. Vaglieri, *I.A.Ḥ.*, dans *E.I.*, III, 706 *sq*; Ibrâhîm .F., Introd. à l'éd. du *Sharḥ Nahj al-balâgha*, I, 13-19; Djebli M., *I.A.H. & les sources de son Sharḥ Nahj al-balâgha*, 10-64; idem, Introd. à l'éd. du *Sharḥ al-âyât al-bayyinât*, 12-24; *idem*, *Tendance politico-religieuse d'I.A.Ḥ.*, dans *Arabica* (en cours).

2. Au sujet de la paternité de cet ouvrage, v. Djebli , *Encore à propos de l'authenticité du Nahj al-balâghal*, dans *Studia Islamica*, 1992, N° 75, 33-56 & idem, *Nahdj al-balâgha*, dans *E.I.*, V, 904 *sq*.



INTRODUCTION

* *
*

TABLE DES MATIÈRES

DU MÊME AUTEUR

* * *

Méthode d'Arabe Maghrébin Moderne
- Vol. I: Dialogues, grammaire et exercices;
-Vol. II: Corrigé des exercices et glossaire arabe-français et français-arabe, avec cassette).
Ed. L'Harmattan, Paris 1994.

ISBN : 2-7384-3115-1